

التربية الإسلامية في المغرب

أصولها المشرقية وتأثيراتها الأندلسية

د. محمد عادل عبد العزيز



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٧

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وامام المرسلين * وبعد ، فان التربية الاسلامية التي كانت أساس ذلك الصرح الشامخ للحضارة الاسلامية عامة ، مازال حظها من الدراسات قليلا جدا ، وتحتاج الى مزيد من التنقيب والدراسة خاصة بعد أن اتضح دور التربية الاسلامية فى بناء الصرح الحضارى الانسانى والعمل على تطويره وارتقائه وبقائه *

واذا كانت التربية الاسلامية فى المغرب استمدت أصولها من المشرق بدءا من الفتح العربى فان المغرب سرعان ماوقع تحت التأثير الأندلسى نظرا للتفاوت الحضارى الذى نشأ بين الأندلس والمغرب فى قرونهما الأولى بحيث لم يمض على فتح الأندلس ثلاثة قرون من الزمان الا وازدهرت حضارتها ازدهارا هائلا بحيث تركت بصماتها على كل التاريخ الاسلامى بل والعالمى *

ولقد ساعد أيضا على ازدياد قوة تيار التأثير الأندلسى على المغرب ذلك الاتحاد السياسى الذى جمع بين المغرب

والأندلس فى كيان سياسى واحد منذ عهد المرابطين فى منتصف القرن الخامس الهجرى وحتى نهاية عهد الموحدين فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى .

وعلى الرغم من أن المغرب اكتمل نضجه الحضارى على عهد بنى مرين الذين حكموا المغرب فى الفترة من سنة ٦٦٨ حتى ٨٦٩ هـ الا أن المد الأندلسى نتيجة للظروف السياسية المتلاحقة قد استمر طيلة عهد بنى مرين فعمل على مزيد من اثراء حضارة المغرب الاسلامية وخاصة فى مجال التربية الأمر الذى جعل التربية الاسلامية فى المغرب بل والحضارة المغربية بصفة عامة ذات طابع خاص .

وهذا الكتاب الذى أتشرف بتقديمه لقراء العربية ، هو خلاصة الدراسات التى قمت بها فى مجال التربية الاسلامية فى المغرب حتى نهاية عصر بنى مرين فى نطاق ماوقع تحت يدى من المصادر والمراجع التى اطلعت عليها فى مصر .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن أكون قد وفقت بهذا الجهد المتواضع أن يكون البحث قد نال ما يستحقه حتى يكون لبنة طيبة فى بناء تاريخ كامل للتربية الاسلامية فى قطر عزيز من أقطار الوطن العربى والاسلامى .

وتقتضى الأمانة أن أعترف بالفضل الكبير لأستاذى الدكتور محمد محمد أمين أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة القاهرة الذى أعطانى من وقته وجهده الكثير فى سبيل اعداد هذا الكتاب .

والله ولى التوفيق

محمد عادل عبد العزيز

مصر الجديدة فى ٢٢ ربيع الأول ١٤٠٧
٢٤ نوفمبر ١٩٨٦

الفصل الأول

التعليم

أولا - برامج التعليم

موقف الدولة :

لم يكن التعليم فى المغرب مقيدا بقوانين تفرضها الدولة ، وانما كان حرا لا قيود عليه غير القيود التى يقرها ويفرضها العرف والعادة (١) . فكان التدريس أمرا مباحا لكل راغب فيه متى وجد فى نفسه الكفاءة لمزاولة مهنة التدريس بشرط ألا يكون ذلك فى مسجد من تلك المساجد الجامعة التى لها صفة المساجد الرسمية للدولة ، والا تطلب الأمر حينئذ الاذن بالتدريس من القاضى (٢) . كما أنه لم تكن هناك أية رقابة على المدرسين أو الطلبة من جهة الحكومة سوى مايدخل فى وظائف الحسبة حيث كانت من أهم اختصاصات المحتسب رعاية التربية وجعلها تسير فى اطار الشريعة الاسلامية ، ووفق الأخلاق الفاضلة والذوق السليم . فكان المحتسب يزور المدارس والكتاتيب بين حين وآخر ليتأكد من سلامة المباني ، ومراعاة قواعد الشريعة الاسلامية فى تعليم الصبيان ، والضرب على أيدي المعلمين فى الكتاتيب وغيرها فى الابلاغ فى ضربهم لتلامذتهم . ومنع أدعياء العلم

(١) ابن خلدون : المقدمة (طبعة الشعب) ص ١٩٥ .

(٢) المصدر السابق الصفحة ذاتها .

من التصدى لتعليم الناس أو علاجهم أو الفتوى لهم فى الأحكام أو الجلوس للفصل فى قضاياهم وربما كانت جولاته التفتيشية فى معاهد التعليم تتناول أيضا حضور بعض الدروس والاطلاع على مناهج التعليم ، والكتب التى يقررها المدرسون على طلبتهم - كما كان يدخل فى اختصاصه الأمر بإصلاح مبانى معاهد التعليم المتداعية (٣) .

كما كان المحتسب الممثل لمذهب الجماعة فيمنع البدع والاهواء ويضطهد أهل المذاهب الشاذة عن مذهب الأغلبية ، ويعزلهم عن المجتمع وعن الأماكن العامة ويحظر عليهم ممارسة أى نشاط دعائى أو ثقافى (٤) .

مراحل التعليم :

كانت المراحل التعليمية فى المغرب نوعين من التعليم : النوع الأول منه وهو ما يعرف الآن بالتعليم العام . أما النوع الآخر فهو تعليم الصنائع وهو ما يعرف الآن أيضا بالتعليم الصناعى .

• وكان للتعليم العام مرحلتان فقط : المرحلة الأولى وفيها يتلقى التلميذ العلم فى المكتب (الكتاب) أو الزاوية ، وتشبه هذه المرحلة التعليم الابتدائى فى وقتنا الحاضر . وتبدأ متى بلغ الطفل سن التمييز فى الخامسة أو السادسة من عمره ، وتنتهى عند البلوغ على وجه التقريب من الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة (٥) .

(٣) اقبال موسى : الحسبة فى المغرب ، رسالة ماجستير . آداب عين شمس ١٩٦٨ . ص ٥٦ ، ٥٧ ، عبد الرحمن بن زيدان : العز والصولة فى معالم نظم الدولة ج ٢ ، ص ٩٤ .

(٤) اقبال موسى : الحسبة ص ٥٧ .
Lectoutneal (R.) : Fés avant le Protectorat, Paris, 1949. (٥)
pp. 212-214.

والمرحلة الثانية فتشمل ما يشبه المرحلتين المتوسطة والعالية فى عصرنا الحديث ، وتبدأ من سن المراهقة تقريبا، وقد يبكر الطالب فيلتحق بتلك المرحلة فى الحادية عشرة من عمره ، فليس فى التعليم الاسلامى فى العصور الوسطى بوجه عام مرحلة متوسطة أو ثانوية على نحو ما هو متبع الآن وان كنا لاندري متى تنتهى تلك المرحلة الا أننا نعرف أن المدة المسموح بها للطلبة للسكنى فى مساكن الطلبة هى ستة عشرة سنة فى المغرب وخمس سنين بأفريقية (٦) .

أما التعليم الصناعى فلم تكن له مؤسسات تعليمية على نحو ما هو متبع الآن وانما كان بالممارسة . وذلك لأن الممارسة كانت فى نظرهم أتم فائدة فى الأحوال الجسمانية المحسوسة ، وكان الأولاد الذين يتوجهون للتعليم الصناعى كانوا يتدربون بالتدريج من البسيط الى المركب ، والبسيط هو الذى يختص بالضروريات ، والمركب هو الذى يكون للكماليات (٧) ، فأما الضرورى مثل الفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة والتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب (٨) . وكان أشهرها هو صناعة الصوف والغناء والجلد ودبغه وخرزة وهو صناعة الأحنذية (٩) .

مناهج التعليم :

كان منهج تعليم الولدان فى المرحلة الأولى من التعليم يستهدف قبل كل شئ تمكين تلاميذ تلك المرحلة الابتدائية من قراءة القرآن مع حفظ بعض اجزائه أو حفظه كاملا ،

(٦) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٩٨ .

(٧) المصدر السابق : ص ٣٥٩ .

(٨) المصدر السابق : ص ٣٦٤ .

(٩) المصدر السابق : ص ٣٦٣ .

ويحدد ابن خلدون السبب في ذلك بأن أهل الملة متفقون في القول بأن القرآن يجب أن يسبق كل شيء إلى قلوب التلاميذ ليرسخ في نفوسهم الايمان وعقائده كما أنهم متفقون في القول بأن ذلك مما يجب أن يتم في الصغر (١٠) .

وطبيعي أن يتضمن المنهج الدراسي في تلك المرحلة من التعليم إلى جانب قراءة القرآن وحفظه التدريب على الكتابة، واتقان التجويد والالمام ببعض أمور اللغة والنحو والفقه عندما تقتضى آية كريمة تفسيراً لغوياً أو نحوياً (١١) .

وكان مذهب أهل المغرب في تلك المرحلة الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المداينة بالرسم ومسائلة، واختلاف حملة القرآن فيه ، ولا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم ، لا من حديث ، ولا من فقه ، ولا من شعر ولا من كلام العرب (١٢) . وقد استمر الحال على ما هو عليه بعد نضج الشخصية الثقافية للمغرب في عصر بنى مرين .

أما المرحلة العالية من التعليم ، فلم تعرف هذه البرامج الاجبارية المفروضة التي تقيد الطالب من حرية الاختيار (١٣) . وان كانت في مجموعها دينية في طبيعتها، فاشتملت على التفسير والحديث والتوحيد والفقه ، وهو الموضوع الذي ارتفعت منزلته تدريجياً ، وكان يشمل العبادات ، كما كان يضاف إلى هذه المواد النحو والبلاغة والعروض والمنطق ومبادئ الرياضيات والفلك حيث كانوا يستعملان في التوقيت الدينى وتقسيم المواريث . ولعله من

(١٠) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٠٥ ، ٥٠٦ .

(١١) روجيه لاتورنو : فاس في عصر بنى مرين ترجمة : د. نقولا زيادة (بيروت

١٩٦٧) ص ١٧١ ، ١٧٢ .

(١٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٠٦ .

(١٣) محمد عبد الرحيم غنيم : تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى ص ٢٧١ .

الممكن أن نضيف أيضا التاريخ الاسلامى والجغرافيا ، وشيئا من الكيمياء ، ولكن على ما يبدو أن العلوم الطبيعية والاجتماعية لم تكن تحتل مكانا كبيرا فى المناهج الدراسية فى تلك المرحلة من التعليم (١٤) .

وكان الأساتذة يحرصون على وضع مناهجهم التعليمية من المتون التى تختار من كتب المؤلفين القدامى التى يغلب عليها أن تكون من وضع المشهود لهم بالعلم والمعرفة ، وان كان يفضل متن من متون المذهب المالكى (١٥) ، الذى كان يمثل محورا رئيسيا للتربية الاسلامية فى المغرب (١٦) . وقد اشتهر من هؤلاء الأساتذة من كان يفتح فى مجلسه أكثر من ثمانين كتابا فيعرضها حفظا عن ظهر قلب (١٧) . ومنهم من اشتهر بأن مجلسه كان وقفا على كتاب التهذيب والرسالة (١٨) ، أو قراءة كتاب الموطأ (١٩) .

كما لجأ العديد من الأساتذة الى وضع المختصرات أو تدريسها مثل أبى محمد عبد الله القشتالى المدرس بمدرسة الحلفائين ، والذى كان يدرس فيها مختصر المدونة للبرادعى (٢٠) .

وقد ألقى لنا ابن خلدون فى مقدمته أضواء هامة على مناهج التعليم فى عصر بنى مرين من خلال نقده لتلك المناهج

(١٤) روجيه لاتورنو : فاس ص ١٧٧ .

(١٥) جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية . ترجمة : محمد مزال ، والبشير بن سلامة (تونس ١٩٧٨) ص ٢٤٠ .

(١٦) المرجع السابق : ص ٢٤٠ .

(١٧) الكتانى : سلوة الانفاس ومحادثة الأكياس بين اقر من العلماء والصلحاء يقاس (فاس ١٣١٦ هـ) ج ٣ ص ١٤٧ .

(١٨) المصدر السابق ص ٢٥٣ ، ابن القاضى : ص ٨٤ .

(١٩) الكتانى : ج ٣ ص ٢٤٤ .

(٢٠) المصدر السابق ص ٤٨ .

فى فصلين كاملين أحدهما تحت عنوان : «ان كثرة التأليف فى العلوم عائقة عن التحصيل» (٢١) . والآخر تحت عنوان : «ان كثرة الاختصارات المؤلفة فى العلوم مخلة بالتعليم» (٢٢) . فيقول فى الأول : «اعلم أنه مما أضر بالناس فى تحصيل العلوم والوقوف على غاياته كثرة التأليف واختلاف الاصطلاحات فى التعاليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك ، وحينئذ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم الى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ولا يفى عمره بما كتب فى صناعة واحدة اذا تجرد لها فيقع القصور ولا بد دون رتبة التحصيل» (٢٣) .

ويذكر ابن خلدون مثالا على ذلك ماكان متعارفا عليه فى شأن الفقه فى المذهب المالكى فيشير الى : «الكتب المدونة مثلا وماكتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس واللخمى وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على التنبيه ، وكذلك كتاب ابن الحاجب وماكتب عليه» (٢٤) .

ويخبرنا أن الطالب فى عصره . كان يحتاج الى دراسة هذه المؤلفات كلها كما كان يحتاج الى تمييز : «الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم والاحاطة بذلك كله» . مع أن مواضيع هذه المؤلفات : «كلها متكررة والمعنى واحد والمتعلم يطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها والعمر ينقضى فى واحد منها» (٢٥) . ثم

-
- (٢١) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٠٠ .
 - (٢٢) المصدر السابق : ص ٥٠١ .
 - (٢٣) المصدر السابق : ص ٥٠٠ .
 - (٢٤) المصدر السابق الصفحة ذاتها .
 - (٢٥) المصدر السابق الصفحة ذاتها .

يقول ابن خلدون : «لو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الأمر دون ذلك بكثير وكان التعليم سهلا ومأخذه قريبا» (٢٦) *

ولكن ابن خلدون يستدرك فيقرر : «ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالتبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تجويلها» *

ثم يذكر ابن خلدون مثالا آخر من علم العربية : «يمثل أيضا علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ماكتب عليه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ماكتب في ذلك كيف يطالب به المتعلم ويقضى عمره دونه ولا يطمع أحد في الغاية منه الا في القليل النادر» (٢٧) *

أما في الفصل الآخر الذي تناول فيه ابن خلدون نقده لمناهج التعليم في عصر بني مرين فيعللها ابن خلدون بأنه : «ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والانحاء في العلوم يولعون بها ويدونون منها برنامجا مختصرا في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسرا على الفهم وربما عمدوا الى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريبا للحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه وابن مالك في العربية والخونجي في المنطق وأمثالهم وهو فساد في التعليم وفيه اخلال بالتحصيل» * (٢٨) *

(٢٦) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٠١ *

(٢٧) المصدر السابق : ص ٥٠١ *

(٢٨) المصدر السابق : الصفحة ذاتها *

طرق التدريس :

لم يعرف المغرب فى المرحلة الأولى من التعليم سوى طريقة التلقين أو التحفيظ (٢٩) • والتى تكون وظيفة المعلم فيها تعليم الصبيان القرآن الكريم والنحو والعربية • • وهذه العلوم كلها لفظية تحتاج الى الحفظ والاستيعاب (٣٠) ويتم التلقين والتحفيظ اما بالقراءة فى المصحف أو الألواح أو التلقين عن ظهر قلب (٣١) •

وكانت الحلقة التى يلتف فيها الطلاب حول أستاذهم هى الطريقة السائدة فى المغرب فى جميع مراحل التعليم (٣٢) • حيث يبدأ الشيخ درسه بالبسملة والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم يقرر الدرس ، ومتى فرغ منه ختمه بقراءة الفاتحة ، وعين لطلابه موضع الدرس المقبل (٣٣) •

وكان المعلمون فى الكتاتيب يحرصون على أن يردد التلاميذ المتعلقون من حولهم القطع المعينة للحفظ بصوت مرتفع ويوجدون فيها ، فكانت أصوات هؤلاء التلاميذ تنبعث من مختلف الكتاتيب ، وكل جماعة تقرأ من القرآن الكريم جزءا يختلف عما تقرأه الجماعة الأخرى ، وبالرغم من ذلك فقد كان المعلم يكتشف الغلطة يغلطها التلميذ بين الجماعة كلها فينزل المعلم به عقابا بقضيب يحتفظ به على مقربة منه ،

(٢٩) التيمى المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار العرب • تحقيق : محمد سعيد العريان القاهرة ١٩٤٩م ص ٢٥٤ ، المغراوى : جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان • تحقيق : أحمد جلولى البسوى ، رابح بونار • الجزائر ص ١٨ ، ١٩ •

(٣٠) محمد أسعد طلس : التربية والتعليم فى الاسلام • بيروت ١٩٥٧م • ص ١٦٦ •
(٣١) التيمى المراكشى : المعجب ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، المغراوى : جامع جوامع ص ١٨ ، ١٩ •

(٣٢) محمد عبد الرحيم غنية : تاريخ الجامعات ص ١٧٧ •

أما اذا كان الذنب أكبر من ذلك كالكسل أو اساءة الأدب أو الاساءة الى النظام فكانت العلقة هي عقاب التلميذ (٣٤) •

وكان لكل تلميذ لوح صغير من الخشب ، وقلم من ريشة الأوز ، ودواة للحبر ، وكان يكتب على اللوح الدرس اليومى ، فاذا ماتعلمه التلميذ وحفظه حفظا مفروضا أن يظل معه مدى الحياة غسل اللوح ليكتب الدرس الجديد (٣٥) وعلى الصبيان متابعة التمرن على الكتابة حتى فى أيام عطلاتهم الاسبوعية ، وقد اعتاد المعلمون على استخدام الأمثال ، ومقاطع الشعر كنماذج لتجويد الخط (٣٦) •

كما كان المعلمون فى هذه المرحلة يحرصون أيضا على أن يدرّبوا التلاميذ على اتباع الآداب الاسلامية ، ولذلك كان المعلم يهتم بتربية التلاميذ على القواعد التى يجب على المسلم الصالح أن يتبعها (٣٧) •

أما التعليم فى المرحلة الأعلى من المرحلة الابتدائية فكان يتبع فيه طرق الاقراء أو السماع ، والسؤال والمناقشة ، وليس من الشايت ما اذا كانت تتبع طريقة الاملاء أثناء الدرس حيث كانت ذاكرة الطلاب مدربة تدريباً قويا على الحفظ (٣٨) •

وكانت طرق التدريس فى تلك المرحلة تتطلب قراءة أحد المتون وشرحه ، وكان على الطالب أن يقرأ ، وعلى

(٣٣) محمد عبد الرحيم غنيمه : تاريخ الجامعات ص ١٧٩ ، د • على عبد الواحد وافي : لمحة فى تاريخ الأزهر القاهرة ١٩٣٦م ص ٥٩ •

(٣٤) روجيه لاتورنو : فاس ص ١٧٠ ، ١٧١ •

(٣٥) المرجع السابق ص ١٧٠ •

(٣٦) Dodge : Muslim Education in Medieval Times Washington, 1962, p. 3.

(٣٧) روجيه لاتورنو : فاس ص ١٧١ •

(٣٨) روجيه لاتورنو : فاس ص ١٧١ •

المدرس أن يوقفه بين الحين والآخر ليشرح للطلاب فقرة أو جملة أو حتى كلمة واحدة عندما يشعر بالحاجة الى ذلك وقد يطول شرحه أو يقصر (٣٩) *

وقد أدت طريقة الاقراء الى فكرة تقرير كتب معينة على الطلاب يدرسونها وبذلك اقتصر التعليم في تلك المرحلة العالية على مجموعات من الكتب يدور العقل في فلكها ، ولا يتجاوزها الى سواها ، وانحصرت جهوده في الحفظ والقراءة ، وتكرار أقوال السابقين من غير اضافة أو تجديد * ولما كانت دراسة الكتب القديمة المطولة أمرا يصعب الاستمرار فيه لذلك ظهرت بدعة الملخصات والمختصرات والمنظومات التي كانت شرا على التعليم في المغرب حيث ضغطت الحقائق العلمية ضغطا أدى الى الغموض في بعض الأحيان ، والتعقيد في البعض الآخر كما كان من نتائجها أيضا صرف العقل عن التفكير العلمى الصحيح ، وقد عاب ابن خلدون هذه الطريقة ووصفها بالاخلال بالتعليم ، واعتبرها مقصرة في تحقيق غايته وفي ذلك يقول : « ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والانحاء في العلوم يولعون ويدونون منها برنامجا مختصرا في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن ، وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسرا على الفهم ، وربما عمدوا الى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريبا للحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه ، وأصول الفقه ، وابن مالك في العربية ، والخونجي في المنطق وأمثالهم * وهو فساد في التعليم وفيه اخلال بالتحصيل *

(٣٩) روجيه لاتورتو : فاس ص ١٧٨ *

وذلك ان فيه تخطيطا على المبتدئ بالقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع الفاظ الاختصار العويصة للفهم يتزاحم المعانى عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها لأن الفاظ المختصرات تجدها لاجل ذلك صعبة عويصة فينقطع فى فهمها حظ صالح من الوقت ثم بعد ذلك فالمملكة الحاصلة من التعليم فى تلك المختصرات اذا تم على سداده ولم تعقبه آفة فهى ملكة قاصرة عن الملكات التى تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة ما يقع فى تلك من التكرار والاحالة المفيدى لحصول الملكة التامة ، واذا اقتصر التكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة . فقصودوا الى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأركبوهم صعبا يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها » (٤٠) .

وحينما حاول الأساتذة استكمال النقص فى هذه الطريقة المنحرفة بعد أن أدرك بعضهم قصور تلك المختصرات عن ايضاح الحقائق العلمية التى تنطوى عليها لجأوا الى طريقة أخرى أكثر انحرافا فلم يعودوا الى الأصول والأمهات القديمة ذاتها أو الى تأليف كتب جديدة وسط بين الاسهاب الواسع والايجاز الضيق ، وانما قاموا يشرحون على ماخصوا ويحشون على ما اختصروا ، وأخذت التعليقات والشروح تتراكم على الكتب المقرر للتعليم (٤١) .

وقد كانت الرواية هى النظام الاساسى الذى يقوم عليه التعليم فى تلك الفترة من العصور الوسطى ، ولا ريب أن هذا الاهتمام العظيم بالرواية يرجع الى طبيعة العقل العربى

(٤٠) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٠١ ، ٥٠٢ .

(٤١) محمد عبد الرحيم غنيمية : الجامعات الاسلامية ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

وقدرته الفائقة على الحفظ . وكان الاسناد من لوازم الرواية ، وهو التحرى فى نسبة الأقوال الى أصحابها بأمانة ودقة فهو للرواية توثيق وتقوية وضمان لصحتها . وكان من عادة من يسمع شيئا عن أستاذ من الأساتذة ويدون ماسمعه أن يكتب كلمة على ما كتبه يسجل فيها اسم استاذة وأسمه هو وتاريخ ذلك ويسمى ما يكتبه عندئذ (سماعا) (٤٢) ، ولم يكن التقييد ضرورة من ضرورات السماع وان كان عملا مستحبا لصيانة العلم من آفات الذاكرة (٤٣) .

أما طريقة السؤال والمناقشة فيبدو أن التربية الاسلامية فى المغرب لم تعط السؤال والمناقشة حقهما ، لذلك نجد ابن خلدون ينتقد اهمال التعليم فى المغرب لطريقة المناقشة ، ويعتبر ذلك سببا لضعف الملكة العلمية بين طلابها : « وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة فى المسائل العلمية فهو الذى يقرب شأنها ويحصل مرامها فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم فى ملازمة المجالس العلمية سكوتا لا ينطقون ، ولا يفاوضون وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة فى العلم والتعليم » ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل تجد ملكته قاصرة فى علمه ان فاوض أو ناظر أو علم وما آتاهم القصور الا من قبل التعليم وانقطاع سنده ، والا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به أنه المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك (٤٤) .

ويبدو أن طريقة المناظرة لم تستخدم الا بين الأساتذة بعضهم وبعض وخاصة فى مجالس الأمراء العلمية (٤٥) .

(٤٢) محمد عبد الرحيم غنيمة : الجامعات الاسلامية ص ١٨٢ .

(٤٣) النوى : التريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير ص ١٤ .

(٤٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٩٨ .

(٤٥) الكتانى : سلوة الأنفاس : ج ٣ ص ١٦٨ .

المواد الدراسية :

لم تكن معاهد التعليم تدرس بها كافة العلوم النقلية والعقلية مجتمعة على نحو ما نجد فى معاهد التعليم الحديثة ، ولم يكن من المتيسر أن تجد فى المدرسة الواحدة أساتذة لكل مادة من مواد العلم فى تلك العصور بل كانت هناك مؤسسات تهتم بعلوم وتهمل غيرها ، ولعل ذلك يرجع الى الظروف المحلية ، ووجود الأستاذ من عدمه . ولهذا كثيرا ما كان الطالب يضطر الى الرحيل الى أقاصى البلدان رغبة فى علم لا وجود له فى بلده . على أن المساجد كانت بصفة عامة أكثر شمولاً من المدارس فيما تقدمه للطلاب من مواد دراسية حيث أنها لم تحدد فى أى عصر من عصورها بمواد خاصة أو غاية تخصصية معينة مثلما كان فى نظام المدارس التى غلب عليها التخصص العلمى وقامت على قاعدته . فوجدت مدراس خاصة بالقرآن ، واخرى للحديث ، وثالثة للفقه ، ورابعة للطب . . . الخ (٤٦) .

واذا كان التعليم فى المغرب قد اشتهر باهتمامه بالحديث والفقه (٤٧) واللغة والآدب حيث كانت النظرة لتلك المواد أنها من ضروريات التربية الاسلامية التى يجب أن يتصف بها كل مثقف أو مشغول بالعلم (٤٨) . الا أن المغرب عرف بتقصيره فى العلوم النظرية من الفلسفة وفروعها (٤٩) .

ويبدو أن علم الفلسفة لم يستطع أن يغزو المساجد والمدارس سافرا واضحا نظرا لنفور المجتمع المغربى بصفة

(٤٦) محمد عبد الرحيم غنيمه : الجامعات الاسلامية ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٤٧) أحمد أمين : ظهر الاسلام ، القاهرة ١٩٤٥م ج ١ ص ٢٩٧ .

(٤٨) محمد عبد الرحيم غنيمه : الجامعات الاسلامية : ص ١٦٣ .

(٤٩) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ١ ص ٢٩٧ .

عامة منه حتى أننا نجد عقلا كبيرا مثل عقل ابن خلدون يرى عدم جدوى الفلسفة الميتافيزيقية ، ولا يعترف بفائدة له بينما نجده يجعل علم المنطق والطبيعيات والرياضيات اجلالا عظيما ، ويعقد فى مقدمته فصلا فى ابطال الفلسفة ، واثبت فساد منتحليها ومن قوله فى هذا : « فهذا العلم كما رأيت غير واف بمقاصدهم التى حوموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها * وليس له فيما علمناه الا ثمرة واحدة وهى شحن الذهن فى ترتيب الادلة والحجاج لتحصيل ملكة الجودة والصواب فى البراهين * وذلك أن نظم المقاييس وتركيبها على وجه الاحكام والاتفاق هو كما اشترطوه فى صناعتهم المنطقية وقولهم بذلك فى علومهم الطبيعية ، وهم كثيرا ما يستعملونها فى علومهم الحكمية من الطبيعيات والتعاليم (الرياضيات) وما بعدها ، فيستولى الناظر فيها بكثرة استعمال البراهين بشروطها على ملكة الاتقان والصواب فى الحجاج والاستدلالات ، لأنها وان كانت غير وافية بمقصودهم فهى أصح ما علمناه من قوانين الانظار * هذه هى ثمرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب أهل العلم وآرائهم * ومضارها ما علمت * فليكن الناظر فيها متحرزا جهده من معاطبها ، وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ، ولا يكبن أحد عليها وهو خلو من علوم الملة ، فقل أن يسلم لذلك من معاطبها » (٥٠) .

ولم يكن التاريخ أيضا من العلوم الأساسية التى تتضمنها المواد الدراسية ويبدو أنه كان علما غير رسمى يرتبط وجوده برغبات الأساتذة وهواياتهم الخاصة ، ومن ثم نلمس قلة الدراسات التاريخية فى المساجد والمدارس بينما طغى علم

الحديث على التاريخ فانتزع منه السيرة النبوية ، وجزءا كبيرا من أنباء القرن الأول الهجرى ، كما استأثر أصحاب الأدب واللغة والنوادر بجانب منه يشمل الحياة العربية الصحراوية قبل الاسلام وبعده ، وأنباء المغازى والفتوح (٥١) .

أما الرياضيات فلم تكن المدارس خالية من كراس للعلوم الرياضية (٥٢) . وتكاد الكيمياء ان ينعدم تدريسها فى معاهد التعليم ، وليس ذلك لتعصب فكرى أو دينى وانما لضعف الفكرة العامة عن الكيمياء فى المغرب ، وعدم الثقة فى غاياتها ووسائلها ، فقد كانت الكيمياء فى تلك العصور ترمى الى محاولة تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب (٥٣) ، ولما كانت هذه الفكرة نوعا من أنواع المخاطرة ، وعملا لايوثق به كثيرا فقد أضحت النظرة الى هذا العلم نظرية يشوبها الشك والارتياح حتى أن ابن خلدون يجعل ممارسته من عمل العاجزين عن معاشهم (٥٣) لذلك انحصر تدريس الكيمياء فى نوع منها موثوق به وهو (الكيمياء الطبية) أو الصيدلة التى كانت علما معترفا به فى البيمارستانات ، كما كان بعض الأطباء يجيدون الطب والكيمياء معا (٥٥) . كما عرفت بعض المدارس العلوم الطبيعية كالضوء .

أما الطب فكان تدريسه عملا مشتركا بين المساجد والمدارس والبيمارستانات وقد تميزت الأخيرة بالدراسات الطبية الاكلينيكية بينما كان التعليم فى الأولى نظريا يحتسا لا مجال للاختيار العملى فيه (٥٦) .

(٥١) محمد عبد الرحيم غنيمه : الجامعات الاسلامية ص ١٦٦ .

(٥٢) المرجع السابق : ص ١٥٦ .

(٥٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٧٣ .

(٥٤) المصدر السابق : ص ٤٩١ .

(٥٥) محمد عبد الرحيم غنيمه : الجامعات ص ١٧٢ .

(٥٦) المرجع السابق ص ١٧٣ .

ولم تكن هناك أدلة صريحة واضحة تدل على تدريس اللغات الأجنبية بمعاهد التعليم فى المغرب حتى نهاية عصر بنى مرين ، وان كان من المحتمل أنها لم تخل من بعض الدراسات من هذا النوع متى تهيأ لها الظروف ووجدت الرغبة من الطالب والقدرة والكفاية لدى الأستاذ (٥٧) .

هيئات التدريس :

كان التدريس فى المغرب أمرا مباحا لكل راغب فيه كما سبق أن أشرنا متى وجد فى نفسه الكفاءة لمزاولة التدريس . بشرط ألا يكون ذلك فى مسجد من تلك المساجد الجامعة التى لها صفة المساجد الرسمية للدولة . والا تطلب الأمر حينئذ الاذن بالتدريس من القاضى (٥٨) . وفى تلك الحالة يكون على من حصل على الاذن أن يذيع ذلك على الملأ من أهل المدينة أو البلدة معلنا عن الدرس الذى يريد أن يلقيه فى أحد فروع العلم (٥٩) .

ولكن ليس معنى ذلك أنه لم تكن هناك ضوابط بتاتا تقيد من الاشتغال بالتدريس سوى محاولة تكشف هؤلاء المدرسين الجدد حيث كان يحرض المدرسون القدامى والطلاب على حضور دروس هؤلاء المدرسين لمعرفة قدرتهم العلمية ، فان أنسوا منهم قوة احتفلوا بهم ، والتفوا حولهم ، وأقبلوا عليهم ، وان كشفوا فيهم ضعفا ، وادعاء ، هجروهم ، وانفضوا من حولهم (٦٠) .

وبعد أن تطورت فكرة الاجازة ، وتحولت الى شهادة علمية مهنية فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر

(٥٧) محمد عبد الرحيم غنينة : الجامعات ص ١٧٤ .

(٥٨) ابن خلدون : المقدمة ص ١٩٥ .

(٥٩) روجيه لاتورنو : فاس ص ١٧٢ .

(٦٠) محمد عبد الرحيم غنينة : الجامعات ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

الميلادى) • أصبح التدريس لا يمارسه الا من كان حاصلا على أجازة بالتدريس والفتيا من شيخه الذى درس عليه (٦١) •

وقد كانت كلمة مدرس مقصورة على من يقوم بالتدريس فى المرحلة العالية من التعليم سواء كان ذلك فى المسجد أو المدرسة ، أما كلمة (معلم) فكانت تطلق على من يتصدى لتعليم الصبيان فى المكاتب فى المرحلة الأولى من التعليم (٦٢) •

ويبدو أن المدرسين كانوا أحسن حالا من المعلمين كما هو الحال فى عصرنا الحاضر ، فقد كان المعلم فى المكاتب فقيرا كل رأسماله أنه يحفظ القرآن الكريم • لذلك كان يتلقى من التلاميذ أجرا أسبوعيا زهيدا بالاضافة الى الهدايا النقدية أو العينية التى كانت تحمل اليه فى الأعياد ، أو الاحتفالات المدرسية ، وخاصة الاحتفال بختم القرآن (٦٣) •

ولم يكن معلم القرآن ، معلما فنيا فحسب جل همه أن ينقل الى الأولاد نتفا من المعرفة ، وانما كان أيضا مربيا يسهر على تربيتههم على القواعد التى يجب على المسلم الصالح أن يتبعها (٦٤) •

أما المدرسون فقد كانت السمة الغالبة على أكثرهم أن الواحد من هؤلاء كان من ذلك الطراز الذى يمكن أن نطلق عليه (الموسوعى النظرة) فقد استطاع عدد كبير منهم أن يجمع بين أكثر من علم فممنهم من اشتهر باجادته لعلم واحد

(٦١) القلقشندي : صبح الاعشى فى صناعة الانشا (القاهرة ١٩١٥) ج ١٤ ص ٣٢٢ •

(٦٢) محمد عبد الرحيم غنيمه : الجامعات ص ٢٦١ •

(٦٣) روجيه لاتورنو : فاس ص ١٦٩ ، ١٧٠ •

(٦٤) المرجع السابق : ص ١٧١ •

من العلوم ومن أمثلة هؤلاء ابراهيم بن عبد الرحمن التسولى الذى جلس لتدريس مذهب الامام مالك بمدرسة عدوة الأندلس ، وكان مجلسه وقفا على التهذيب والرسالة (٦٥) .

ومنهم من اشتهر باجاداته لمجموعة من العلوم ، ومن هؤلاء على سبيل المثال ابن أجروم الذى برع فى علم النحو وعلم الفرائض والحساب ، كما كانت له مصنفات وارجيز فى القراءات (٦٦) . . وابو عبد الله محمد بن الشيخ الكبير الذى كان له باع مديد فى علم اللغة والأدب والبيان والنحو والتاريخ والحساب (٦٧) .

ومن هؤلاء المدرسين من اشتهر بأنه كان يفتح فى مجلسه أكثر من ثمانين كتابا فيعرضها حفظا عن ظهر قلب مثل أبو الحسن الصغير الذى كان يدرس المذهب المالكي بجامعة الأصدع فى فاس (٦٨) .

وقد عرف بعض هؤلاء المدرسين بشدة العناية والتحري للطهارة قبل البدء بدرسه ، وأكثر ماكان ذلك فى أساتذة القرآن والحديث لما لهما فى نفوس المسلمين من المكانة والقداسة ، وكان ذلك من الآداب المستحبة (٦٩) .

ولم يكن لأهل العلم عامة فى المغرب حتى نهاية عصر بنى مرين — سواء أكانوا أساتذة أو طلبة — ملابس تميزهم عن العامة مثلما عرف عن أهل المشرق فى تلك الفترة ، ولكن

(٦٥) الكتاني : سلوة الأنفاس ج ٣ ص ٢٥٣ ، ابن القاضى : ص ٨٤ .

(٦٦) السيوطى : بغية الوعاة فى طبقات اللغويين النحاة . ت : محمد بو الفضل ابراهيم ج ١ ص ٢٥٣ .

(٦٧) الكتاني : سلوة ج ٣ ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٦٨) المصدر السابق : ص ١٤٧ .

(٦٩) ابن خلكان : وفكات الاعيان القاهرة ١٢٩٩ هـ ج ١ ص ٥٣٤ .

كان كل مايمتاز به أهل العلم عن العامة من الناس هو حجم
عمائهم وضيق القماش (٧٠) *

ويبدو أن المدرسين كانوا لا يحصلون على مرتبات ثابتة
من الحكومة ، الا أن الغرباء منهم كانوا يتمتعون بنعمة
السكن ، كما نعم المدرسون عامة بالهدايا النقدية أو العينية
التي كانت تدفعها لهم الحكومة فى مناسبة الأعياد الدينية ،
والمناسبات الهامة التي كانت الحكومة تحتفى بها (٧١) * وقد
كان لكثير منهم أملاك خاصة قد تكون كبيرة ، وثمة آخرون
ممن أصهر الى أسر غنية ، وأخيرا فقد كان هناك من يزيد من
وارداته عن طريق تقديم النصح فى الأمور الشرعية ، وعلى
العموم فقد كان هؤلاء المدرسون يعيشون فى يسار *

ومن المحتمل أن يكون هؤلاء المدرسين فيما بينهم سلم
أدبى ، وان لم يكن لهم سلم مهنى ينظم أمورهم ، وعلى كل
حال فقد كانوا يشكلون هيئة العلماء التي صار لها
تدريجيا دور متزايد الأهمية فى الحياة الثقافية والروحية
والسياسية فى المغرب بأكمله ، ويبدو أنه رغم ماكان بين
هؤلاء المدرسين من منافسة ، فانهم فى الغالب كانوا يظهرون
تضامنا كبيرا ، ويتصرفون فى مواجهة الأمور الخطيرة تصرف
الجسم الواحد (٧٢) *

الطليبة :

كان الولدان يرسلون الى المكاتب (الكتاتيب) متى بلغوا
سن التمييز (٧٣) فى الرابعة أو الخامسة من أعمارهم *

(٧٠) المعرى : وصف افريقية والأندلس ص ٢٢ *

(٧١) روجيه لاتورتو : فاس ص ١٧٥ - ١٧٧ *

(٧٢) المرجع السابق : ص ١٧٥ - ١٧٧ *

(٧٣) محمد عبد الرحيم غنينة : الجامعات ص ٢٦٩ *

وطبيعى أن يكون الولدان فى هذه السن المبكرة من هؤلاء الذين يسكنون على مقربة من تلك المكاتب (٧٤) .

وكان نظام اليوم المدرسى فى تلك المكاتب يقضى بأن تكون الدراسة على فترتين ، فكان على التلاميذ أن يذهبوا الى المكاتب مبكرين بعد صلاة الفجر (٧٥) يحمل كل منهم معه لوحه الصغير المصنوع من الخشب ، ودواة الحبر ، وقلما عبارة عن احدى ريشات الاوز ، ليكتب درسه اليومى ، فاذا مادخل التلاميذ غرف الدراسة جلسوا على الحصير الذى كان يغطى أرضية تلك الغرف متحلقين حول معلمهم (٧٦) ، ويظلون حتى قرب الظهر حيث يذهبون الى منازلهم لتناول طعام الغذاء ، ثم يعودون بعد ذلك مباشرة الى المكاتب ليتابعون تعلمهم حتى صلاة العصر حيث ينتهى اليوم المدرسى (٧٧) . كما كان التعليم فى هذه المكاتب يتوقف يومين كل أسبوع ، هما على الأرجح يوما الخميس والجمعة (٧٨) .

ولم يكن أكثر الأولاد - خاصة أولاد الطبقة الدنيا - يتجاوزون مستوى تلك الكتاتيب . بل أن كثيرا منهم كانوا يتركون الدراسة قبل أن يختموا القرآن . أما أولئك الذين كتب لهم أن يختموا القرآن ، وحذقوا القراءة والكتابة ، وأتقنوا التجويد والتفقه فى بعض أمور اللغة والنحو ، وكانوا قد بلغوا سن المراهقة فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرهم ، فكانوا يتابعون دراستهم فى المرحلة الأعلى متى سمحت مواردهم بذلك (٧٩) .

(٧٤) روجيه لا تونزو : فاس ص ١٧٠ .

(٧٥) المرجع السابق : ص ١٧٨ .

(٧٦) المرجع السابق : ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٧٧) المرجع السابق : نفس الصفحات .

(٧٨) المرجع السابق : ص ١٧٨ .

(٧٩) المرجع السابق : ص ١٧٢ .

والى جانب هؤلاء الطلبة الذين سمحت لهم الظروف بالاستمرار فى تحصيل العلم فى المرحلة الأعلى ، كان هناك غيرهم ممن عاقتهم ظروف الحياة عن التفكير فى الدرس ثم رغبوا فى التعلم بعد أن تقدمت بهم السن (٨٠) .

وكان الالتحاق بمدارس تلك المرحلة العالية غاية فى البساطة ، ولا يتطلب الأمر غير ذهاب الطالب الى المدرسة أو المسجد حيث يجلس الى الأستاذ الذى يريده . وكانت الحرية مكفولة له بالتنقل بين من يشاء من الأساتذة دون قيد أو شرط . كما كانت حرريته مكفولة فى انتقاء ما يشاء من مواد الدراسة ، ودراسة ما يرغب فيه منها ، والاعراض عما لا تميل نفسه اليه . فلم يعرف التعليم فى تلك الفترة هذه البرامج الاجبارية المفروضة (٨١) ، كما لم يعرف التعليم فى تلك المرحلة العالية مددا محددة للدراسة وان كنا قد علمنا أن المدة المحددة للإقامة فى مساكن الطلبة كانت ستة عشرة سنة (٨٢) .

ولم تكن هناك ساعات محددة لالقاء المحاضرات فى معاهد التعليم سواء كان ذلك فى المسجد أو المدرسة ، وانما تخضع أوقات الدراسة فى تحديدها لأمرين أولهما مواقيت الصلوات الخمس اليومية ، حيث كانت العادة أن تلقى الدروس قبل الصلاة أو بعدها ، والأمر الثانى هو رغبة الأستاذ ، فهو الذى يحدد ميعاد محاضراته حسب حالته . لذلك كان كل مسجد تنتظم الدراسة فيه تبعا لرغبات الأساتذة أو الطلاب أو مواقيت الصلاة (٨٣) .

(٨٠) ٨٠ محمد عبد الرحيم غنينة : الجامعات ص ٢٧١ .

(٨١) المرجع السابق : ص ٢٧١ .

(٨٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٩٨ .

(٨٣) محمد عبد الرحيم غنينة : الجامعات ص ٢٧٤ .

ولقد ترك التعليم فى تلك المرحلة العالية أبواب الالتحاق مفتوحة أمام الراغبين من الطلبة ، وهياً للطلاب السبيل ليدرس كيف يشاء ويختار الأستاذ الذى يناسبه ويرغب فى علمه ، ووفر له بذلك حرية الدرس ، كما لم يمنعه من العمل خارج معاهد العلم ليحصل على قوته ، ولم يبخل عليه بالمعونة المادية فى أغلب الأحوال حتى يتفرغ للدراسة والتحصيل (٨٤) . فلقد كان انتشار حركة الأوقاف الخيرية فى ربوع المغرب فى عصر بنى مرين ، وظهور المدارس التى تشتمل على مساكن للطلبة نقطة تحول كبيرة فى حياة الطلاب ، وبداية عهد جديد لهم تهيأ فيه نوع من الضمان الاجتماعى يقيهم شرور العوز والفاقة .

وكان على الطالب أن يحضر المحاضرات التى كان يعقدها أستاذه عددا من المرات كل أسبوع ، وليس من الثابت ما اذا كان الطلاب يدونون شيئا فى الكراسات فقد كانت ذاكرتهم مدربة تدريباً قويا على الحفظ .

وكان هؤلاء الطلاب صنفين : طلاب المدن الكبيرة ، والغرباء عن تلك المدن . فالأولون يستمرون فى العيش مع أهليهم ، أما الصنف الثانى فكان أفرادهم يأتون من مختلف المدن الصغيرة والقرى المنقرية حتى من تلمسان فى فترة خضوعها للسيادة المرينية (٨٥) . وطبيعى أن يتلقى الطلبة الذين كانوا على شىء من اليسار بعض المأكل من ذويهم . أما الآخرون فقد كانوا يستطيعون أن يزدوا من إيرادهم بإسهامهم فى الصلاة على الجنائز حيث كانوا يقرأون آيات القرآن أو يرددون بعض الأدعية ، كما كان البعض يحرص

(٨٤) محمد عبد الرحيم غنينة : الجامعات الاسلامية : ص ٢٧٣ .

(٨٥) المرجع السابق : ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

على اعطاء الدروس الخصوصية كما جرت العادة في كل زمان ومكان . وليس في الرواة من نقل عن الطلبة في تلك الفترة أنهم كانوا يشتركون في أعمال الشغب مما يدل على تفرغهم للعلم (٨٦) .

ولم يكن يتخلل فترة التعليم التي يقضيها الطالب حتى يتم دراسته أى امتحانات على النحو المتعارف بيننا بحيث لا ينتقل الطالب من سنة الى أخرى الا بعد النجاح فيها واجتيازها ، وانما كانت فترات تقديرية لاقامة الطالب بالمدرسة يستطيع الطالب العادى خلالها أن يحصل قدرا لا بأس به من العلم فى الفرع الذى يختص به وينال فى نهايتها الاجازات العلمية التى يودها من الأساتذة الذين يدرس عليهم (٨٧) .

وقد كان أمام الطالب الفاسى متى أتم دراسته فرص متعددة من العمل . فقد يدخل فى خدمة الدولة . أو قد ينضم الى طائفة المدرسين اذا كان من متيسرى الحال ، أو قد ينضم الى طائفة الموثقين ، وأهل الشرع وهما مهنتان كان لهما مستقبل باهر فى مدينة يغرم أهلها بالأموال الشرعية ، وقليل منهم من كان يكتفى بما يحصل عليه من ثقافة وعلم فينبكفىء على العمل الذى يمارسه والده وأسرته . أو يعتمد الى الاشراف على أملاك أسرته . وكان أكثر الغرباء يعودون الى مدنهم أو قراهم أو قبائلهم للقيام بمهمة التدريس أو الاهتمام بالقضاء .

وقد يجرب الموهوبون منهم حظه فى منافسة شباب فاس على الوظائف الشاغرة ، وكثيرا ماكانوا ينجحون (٨٨) .

(٨٦) محمد عبد الرحيم غنيمة : الجامعات الاسلامية : ص ١٨٠ .

(٨٧) الرجوع السابق : ص ٢٧٢ .

(٨٨) دوجيه لاتورنو : فاس ص ١٨٠ ، ١٨١ .

ويبدو أن عدد الطلاب (الخريجين) كان يتناسب سنويا وحاجات البلاد . اذ ليس هناك ما يشير الى أن البلاد مرت بها فترة عرفت فيها تخمة في أهل العلم من الموظفين في الدولة (٨٩) .

الرحلة في طلب العلم :

كان التجوال في سبيل الدراسة والعلم أمرا شائعا بين طلاب العلم في المغرب مثلما كان شائعا في الشرق والغرب في العصور الوسطى (٩٠) . فقد كان الحرص على لقاء الشيوخ والأستاذة المشهورين هو الغرض الأول من الرحلة في طلب العلم ، وتحتل فكرة ضرورة الأخذ عن الشيخ مباشرة والجلوس اليه أهمية كبرى في التعليم في تلك الفترة ، فلم يكن يكتفى الطالب بقراءة مصنفات الأستاذ وحده ، وانما كان لابد أن يقرأها عليه أو يسمعها منه حتى يعتبر ثقة في مادته ، وحجة في عمله ، وبدون ذلك لاتصح روايته ولا يوثق بقوله (٩١) .

كما كان الاهتمام بالرحلة في طلب العلم ضربا من ضروب التحقيق العلمي ، فلم يظهر كتاب لامام في فنه الا سارع اليه طلاب العلم ليقرأه عليه بغية الانتماء وتحقيق اسناده اليه ونسبته له (٩٢) . وليمكن طالب العلم أيضا من الاستفادة بتمييز الاصطلاحات بعد لقاء العديد من شيوخ العلم لما يراه من اختلاف طرقهم في البلاد المختلفة التي يرحل اليها (٩٣) .

(٨٩) روجيه لاتورنو : فاس من ١٨١ .

(٩٠) محمد عبد الرحيم غنيمة : الجامعات من ٢١٥ .

(٩١) المرجع السابق من ٢١٢ .

(٩٢) المرجع السابق من

(٩٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٠٩ .

ولا ريب أن مما أعان على كثرة الرحلات ما كان يلقاه طلاب العلم من رعاية أثناء رحلتهم نتيجة لما أوصى به الاسلام من البر بأبناء السبيل ، ورعاية المسافر والعطف عليه ، فأينما ذهب الغريب فى أنحاء العالم الاسلامى فى العصور الوسطى ، وجد المكان الذى يبيت فيه والموضع الذى يؤويه ، وكانت المساجد والمدارس - حيث الأماكن معدة لايواء الطلاب بالمجان والنفقة عليهم - خير مكان يقصده الغريب ، كذلك كانت الربط والزوايا والخوانق مفتوحة للمسافرين والقادمين (٩٤) .

وتجدر هنا الملاحظة بأن حكام المغرب لم يضعوا أمام حركة العلماء فى دولتهم أية عوائق ، كما سمحوا للوافدين من العلماء الاقامة فى ربوع دولتهم والتمتع بكل المميزات التى يتمتع بها أقرانهم من أهل العلم فى المغرب وقد شغل بعض هؤلاء الوافدين مناصب كبرى فى الدولة ، والأمثلة على ذلك لاتعد ولا تحصر .

وقد شملت الرحلة فى طلب العلم داخل بلاد المغرب معظم المدن المغربية وعلى رأسها مراكش وفاس كما شملت الرحلة فى طلب العلم كلا من المغرب والاندلس ، فتدقق طلاب العلم والعلماء من المغرب على مراكز العلم فى الأندلس . وأسهمت المصادر الاسلامية فى الحديث عن الأفراد الذين وفدوا على الأندلس من المغاربة لينهلوا العلم من معاهدها حتى أن الكثير من قضاة المغرب وعلمائه كانوا ممن تلقوا علومهم فى مراكز العلم بالاندلس .

ومن أشهر الشخصيات المغربية التى قصدت الأندلس

(٩٤) محمد عبد الرحيم غنيمه : الجامعات من ٢١٢ .

للدراسة فقيه المرابطين ومنشأ حركتهم عبد الله بن ياسين ،
وقد وصل الى الأندلس فى عهد دويلات الطوائف حيث مكث
هناك ما يقارب سبع سنوات ثم عاد بعدها الى المغرب (٩٥)
كما كان على رأس الرحلة فى طلب العلم من أبناء المغرب الى
الأندلس أبنا الحكام من المرابطين والموحدين وفى عصر
بنى مرين ومن هؤلاء الذين رحلوا الى الأندلس من المغاربة ،
أبو عبد الله محمد بن مرزوق والذى أسندت اليه مهمة الخطابة
فى مسجد غرناطة كما أسندت اليه أيضا مهمة الاقراء ،
والتدريس فى المدرسة غرناطة (٩٦) .

ومن الذين رحلوا الى فاس وتلمسان من الأندلسيين
ابن عباد الرندى الذى قرأ بهما الفقه ، والأصول ، والعربية ،
كما رحل من الأندلس الى مدينة سلا بالمغرب الأقصى ، ومنها
رحل الى فاس صاحب الشيخ أحمد بن عاشر ، والذى تولى
الخطابة بجامع القرويين بفاس عشرة سنة حتى وفاته سنة
٧٩٢ هـ / ١٣٨٩ م (٩٧) .

ومن علماء الأندلس أيضا الذين رحلوا الى المغرب فى
العصر المرينى العالم الأديب الشاعر ابن الحاج الغرناطى ،
الذى عاش فترة طويلة فى بلاط بنى مرين حيث عمل ضمن
كتاب الانشاء سنة ٧٣٤ هـ / ١٣٣٣ م فى عهد السلطان
ابى الحسن المرينى ، وعهد خليفته السلطان أبى عنان (٩٨) .

ومن هؤلاء أيضا الكاتب الأديب محمد بن أبى القاسم

(٩٥) مجهول : الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية . نشر أحمد جلوش (الرباط
١٩٣١) ص ٩ .

(٩٦) ابن فرحون : الديباج المذهب ت : د . محمد الأحمدي أبو النور القاهرة ج ٢
ص ٢٩٤ .

(٩٧) المقرئ : فتح الطيب ج ٥ ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ .

(٩٨) المصدر السابق : ج ٧ ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

محمد بن أحمد بن جزى الكيلي من أهل غرناطة ، والذي كان يتولى مهمة الكتابة لسلطان غرناطة ابي الحجاج يوسف قبل رحيله الى فاس ، كما كلفه السلطان أبو عنان المريني بكتابة رحلة ابن بطوطة ، وتدوين أحداثها بأسلوبه ، فجاءت كتابته لهذه المرحلة نموذجاً رائعاً لفن أدب الرحلات في عصره (٩٩) .

ومن علماء الأندلس الذين حصلوا علومهم في فاس ، ثم نقلوا ما حصلوه من علوم الى غرناطة ، أبو العباس أحمد بن قاسم بن البقال ، وأبو عبد الله بن البيوت المقرئ ، والزاهد أبو الحسن بن أبي المولى ، وغيرهم ممن نهلوا العلم في فاس على يد نخبة من علمائها (١٠٠) .

ولم تكن الرحلة في طلب العلم قاصرة على بلاد المغرب والأندلس ، بل شملت بلاد غرب أفريقيا ، ومن هؤلاء المغاربة الذين رحلوا الى بلاد المشرق العربي عبد الله المريني رحل الى الاسكندرية ، وأقام بها ، وانضم الى أقرانه من أمثال ابن رواج ، وأبي العباس القرطبي ، وابن عبد السلام ، وأصبح عبد الله المريني مصدراً مثلهم من مصادر علم الحديث (١٠١) .

ومن علماء دولة مرين الذين نهلوا من فيض علماء مصر أبو عبد الله بن مرزوق الخطيب ، والذي بلغ عدد العلماء الذين تتلمذوا قرأ عليهم في مصر أكثر من أربعين عالماً ذكرهم المقرئ في نفح الطيب ، كان معظم من أهل القاهرة ، وعند من أهل الاسكندرية ، ومدينة بلبيس .

(٩٩) المقرئ : نفح الطيب ج٢ ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(١٠٠) ابن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة ج٢ ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

(١٠١) المقرئ : الخطط ج٢ القسم الأول ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

ولم يترك ابن مرزوق أحدا في مصر الا وتعلم منه أو قرأ عليه حتى أنه قابل الشيخة المسندة فاطمة بنت محمد الفيومي البكري ، والتي يذكر المقرئ نقلا عن الاحاطة أنها كانت ست الفقهاء (١٠٢) .

وتبادل علماء المشرق الرحلة مع علماء المغرب ، فقد رحل الى العاصمة فاس بعض علماء المشرق من أمثال : محمد الهادي بن أبي القاسم بن نفيس الشريف وهو جد الشرفاء العراقيين بفاس ، وكان عالما آديبا حظى بمنزلة رفيعة عند الخاصة والعامة في دولة بني مرين ، وقد خرج السلطان أبو سعيد عثمان المريني لاستقباله بنفسه عند قدومه الى المغرب ، وأكرمه وأجزل صلته (١٠٣) .

كما وفد على المغرب في عهد السلطان أبي الحسن المريني الكثير من الشرفاء والفقهاء أمثال أبي عبد الله بن عبدالمعافي وأولاده من فقهاء مكة المكرمة ، ومن فقهاء المدينة المنورة ، أبو الحسن بن فرحون ، والذي كان بمعيته وفد كبير من أهل المدينة (١٠٤) .

كما رحل العديد من علماء المغرب الى بلاد مالي بغرب افريقيا حيث كانت المدن في مالي مراكز ثقافية تزخر بالفن والثقافة الاسلامية ، وقد تجمع في هذه المدن الفقهاء والخطباء والمفسرون للقرآن الكريم من المغاربة في العصر المريني وكان منهم القضاة ، والمدرسون ، وقد نال هؤلاء مكانة عظيمة في بلاط سلطان مالي (١٠٥) .

(١٠٢) القرئ : فتح الطيب ج ٥ ص ٣٩٢ ، ٣٩٥ .

(١٠٣) الكتاني : سلوة الأنفاس ج ٣ ص ١٧ .

(١٠٤) ابن مرزوق المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبا الحسن . مخطوط مصور بالميكروفيلم بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية عن الخزانة العامة بالرباط ص ٢٦ ، ٢٧ .

(١٠٥) ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ج ٢ ص ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٥ ، ١٩٨ .

وقصارى القول : لقد عكست الرحلة فى طلب العلم على التربية الاسلامية فى المغرب آثارا طيبة كثيرة ، وكانت منبعها غنيا بالخير والنشاط الدائم وسيلا الى تحقيق التبادل الثقافى ، والتعاون الفكرى بين المراكز الثقافية فى ربوع المغرب وغيره من مراكز الثقافة فى العالم الاسلامى فى ذلك الوقت . ويمكن التعرف على مزايا الرحلة فى طلب العلم وفضلها على العلم والتعليم فى المغرب مما ذكره ابن خلدون فى مقدمته حيث يقول : « والسبب فى ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعلما والقاء ، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة الا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكما وأقوى رسوخا فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها . والاصطلاحات أيضا فى تعليم العلوم مغلطة على المتعلم حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم ، ولا يدفع عنه ذلك الا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين» (١٠٦) .

الشهادات والألقاب العلمية :

يبدو أن المغرب لم يعرف الشهادات التى تحمل طابع المعهد العلمى واسمه كوحدة متميزة متكاملة حتى عصر بنى مرين ، وانما كان المعروف هو الأجازة التى كانت تمثل ضرورة علمية فى الأوساط العلمية . يحرص عليها العالم لضمان انتشار علمه سليما صحيحا خاليا من التحريف والأغلاط بقدر الامكان ، ويحرص عليها المتعلم لينال علما مضبوطا لا شك فى نسبته الى صاحبه ، وليثبت انتماءه الى

(١٠٦) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٠٩ .

عالم موثوق فيه • ومن ثم كانت الاجازات عملا شخصيا يحتمل
من اختصاص الأستاذ وحده ولا صلة له بالمؤسسات
التعليمية (١٠٧) •

ثم تطورت فكرة الاجازة فى العالم الاسلامى عامة ،
وتحولت الى شهادة علمية مهنية فى النصف الاول من القرن
التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، وأصبح التدريس
لا يمارسه الا من كان حاصلا على اجازة بالتدريس والفتيا من
شيخه الذى درس عليه (١٠٨) •

واذا كانت الاجازة شهادة علمية أو مهنية أو ترخيصا
بتحصيل الطالب مادة معينة أو اذنا له برواية علم من العلوم •
فانها فى نفس الوقت لم تكن درجة علمية تحدد مكانة عن
علم من العلوم • لذلك فقد اشتملت الحياة الثقافية فى العالم
الاسلامى على مقاييس أخرى لبيان درجة العالم ومكانته فى
علمه ومدى اجادته له وحجيته فيه ، وتلك هى الألقاب
العلمية التى تشبه الى حد كبير الدرجات العلمية العالية الآن
كالمجستير والدكتوراه ، ولكن هذه الألقاب لم تكن تعطى
بطريق الامتحان العام أو الخاص ، وانما كان يحصل عليها
العالم غالبا نتيجة للمكانة العلمية التى يكونها العالم لنفسه
ويلمسها فيه المجتمع والمشتغلون بالدرس والبحث فيلقبه
أهل عصره باللقب العلمى الذى يناسبه ويدل على
قدره (١٠٩) •

وأهم الألقاب العلمية التى عرفها المغرب حتى نهاية
عصر بنى مرين : (الامام) ويعنى هذا اللقب أنه الشخص

(١٠٧) محمد عبد الرحيم غنيمة : الجامعات ص ٢٢٢ ، ٢٢٧ •

(١٠٨) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٢٢ •

(١٠٩) محمد عبد الرحيم غنيمة : الجامعات ص ٢٣٠ •

الذى يقتدى به ، وقد أطلق هذا اللقب على كل عالم مبرز فى علمه سواء كان فى الفقه أو اللغة أو الطب أو غير ذلك من العلوم (١١٠) • (والحافظ) ، ويعنى الحافظ للحديث ، ولكنه استعمل فى عصر بنى مرين على علماء الحديث وأصحاب اللغة ، ومن يحفظون الأخبار والآثار والأيام والمشاهد والتواريخ (١١١) • (والعالم والعلامة) ، حيث استعمل لقب العالم على الواقف على العلوم (١١٢) ، والعلامة بالتشديد من ألقاب أكابر العلماء ، وهو العالم للغاية (١١٣) • (والشيخ) • وهو من ألقاب العلماء والصلحاء ، ولقب به أهل العلم والصلاح توقيرا لهم كما يوقر الشيوخ الكبار (١١٤) • ويبدو أن هذا اللقب كان منصبا علميا رئاسيا يعلى من شأن صاحبه (١١٥) (والفقيه) ، وهذا اللقب لم يكن قاصرا على المشتغلين بالفقه فحسب ، وإنما توسعوا فى استعماله (١١٦) ، فكانوا يطلقونه على القاضى ، وعلى الكاتب والنحوى واللغوى (١١٧) • (والمحدث) وهو لقب لا يطلق الا على من حفظ الحديث وعلم عدالة رجاله وجرحها دون المقتصر على السماع (١١٨) • (والمقرئ) أطلقه المغاربة بشكل عام على مقرئ القرآن الكريم العارفين بقراءاته

(١١٠) محمد عبد الرحيم غنيمه : الجامعات الاسلامية ص ٢٣١ •

(١١١) كريم عجيل حسين : الحياة العلمية فى مدينة بلنسية الاسلامية • بيروت

١٩٧٦م ص ٣٥٧ •

(١١٢) خليل طوطح : التربية عند العرب ، القدس • ص ٥١ •

(١١٣) القلقشنندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٢١ •

(١١٤) المصدر السابق : ج ٦ ص ١٧ •

(١١٥) د • أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس • الاسكندرية

١٩٦٨م • ص ٢٤٤ •

(١١٦) محمد عبد الرحيم غنيمه : الجامعات ص ٢٣٤ •

(١١٧) المقرئ أزهار الرياض فى أخبار عياض • نشر منه ثلاث أجزاء : مصطفى

السقا ، وابراهيم الايبارى ، وعبد الحفيظ شلبي (القاهرة ١٩٤٢) ج ١ ص ٢٢١ ،

القلقشنندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٢٢ •

(١١٨) القلقشنندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ١٤ •

الملمين بعلومه (١١٩) • (والرحلة) وهو لقب
أكابر العلماء والمحدثين ، والرحلة فى اللغة ماير.
أن الطلبة ترحل اليه (١٢٠) •

وكانت هناك عدة ألقاب أخرى خاصة بر-
مثل (المؤدب) و (المعلم) (١٢١) والاستاذ
والمدرس (١٢٣) ، والمعيد (١٢٤) • كما وردت أ
ما تدل على الأعمال العلمية الادارية ، كالفقيه
وصاحب القلم الأعلى وشيخ الكتاب (١٢٥) •
الكتاب ، وكاتب السر أو كاتب السر والانشاء (٦)

-
- (١١٩) ابن أبى زرع : الدخيرة السنية ص ١٦٢ •
(١٢٠) المراكشى : الذيل والتكملة لكتاىى الوصول والصلة • تحق.
عباس • بيروت ص ٨٧ - ٩٠ ، خليل طوطح : المرجع ذاته ص ٢٦٩ •
(١٢١) خليل طوطح : التربية ص ٤٨ ، كريم عجيل حسين : الحياة ا
(١٢٢) ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة ج٢ ص ٣٢٨ •
(١٢٣) ابن سعيد الأندلس : الفصون الياغة فى شعراء المائة الس
ابراهيم الابيارى • القاهرة ١٩٧٧ م ص ٥١ ، خليل طوطح : التربية ص
(١٢٤) خليل طوطح : التربية ص ٤٩ •
(١٢٥) د • أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأند
(١٢٦) ابن خلدون : التعريف ص ٧٠ ، القلقشندى : صبح الأعشى

ثانيا - أمكنة التعليم

المكتب أو الكتاب :

المكتب موضع الكتاب ، والمكتب والكتاب موضع تعليم الكتاب . والجمع الكتاتيب . . . المكتب موضع التعليم ، والمكتب المعلم ، والكتاب الصبيان (١) . وكانت الكتاتيب فى المغرب هى الأماكن التى يتعلم فيها صبية المسلمين مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم (٢) . أى أن هذه المكاتب تشبه مانسميه الآن بالمدارس الابتدائية ، وإذا كانت ليست لدينا معلومات معينة عن تلك المكاتب فى المغرب ، إلا أنه من المؤكد أنها كانت تشبه جميع الكتاتيب فى العالم الاسلامى بحيث لاتعدو أن تكون حانوتا ، أو حجرة مجاورة للمسجد أو بعيدة عنه ، أو غرفة فى منزل مؤنثة ببعض الحصر .

الزوايا :

الزاوية مرحلة وسطى بين الكتاب الذى هو مدرسة

(١) ابن منظور : لسان العرب . القاهرة ١٨٨٢ م . ص ١٩٣ .

(٢) الجزائى : زهرة الآس فى بناء مدينة فاس . تحقيق : الفردبيل . الزائر ١٩٢٢ م ص ٨٣ .

بتدائية ، والمدرسة التى هى معهد ثانوى (٣) ، فالزاوية تشبه ما نسميه الآن مدرسة اعدادية ، والزاوية من حيث الوضع أشبه شئ بالخانقاه الشرقية ، وقد زادت انفصالا منذ عصر الموحدين عن الرباط الذى هو لها بمثابة الأم . اذ أن الرباط مؤسسة متعددة الشعب . احداها شعبة التعليم والتى عرفت بالزاوية حيث كان على نفقتها يسكن الطالب ويأكل ويشرب ويلبس ويتعلم ، ثم يتحول فى الغالب الى مدرس بها أو بغيرها من الزوايا (٤) .

والزوايا على أنواع : أولا الزاوية البسيطة ، أى التى لم تنشأ على ضريح أحد الأولياء ، وانما هى مجموعة من الأبنية المتلازمة منها مبيت الطلبة وهى مكونة من عدة غرف حول صحن كبير ، والكتاب وغرفة التدريس والمكتبة والمسجد ثم المرافق اللازمة . وتكون الأراضى التى حولها حبسا عليها فى الغالب للانفاق منها ومن الهبات ، والاعطيات التى تصلها من أهل الخير .

أما النوع الثانى من الزوايا فهو الزوايا ذات الولى التى انشئت حول ضريح أحد الأولياء .

والنوع الثالث من الزوايا فهو الزوايا الطرقية وهى الخاصة بأصحاب الطرق الصوفية حيث يرددون فيها الأناشيد والاحزاب بالطريقة الى جانب التعليم (٥) .

ويبدو أن بنى مرين اهتموا بتلك الزوايا منذ توليهم السلطة ، حيث ورد فى كتاب الذخيرة أن السلطان أبا يوسف

(٣) عثمان الكعاك : محاضرات فى مراكز الثقافة فى المغرب من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر (القاهرة ١٩٥٨) ص ٥٢ .

(٤) المرجع السابق : ص ٥٢ .

(٥) المرجع السابق : ص ٥٣ .

يعقوب أول سلاطين بنى مسرين بنى الزوايا فى الخلوات ،
وأوقف لها الأوقاف الكثيرة (٦) .

المدارس :

ان ظهور المدارس بالمفهوم الخاص ذى الأهداف المحددة
فى المغرب فما زال يكتنفه شئء من عدم الوضوح لقلة
النصوص التاريخية فى المصادر التى يمكن بواسطتها اماطة
للثام عن هذا الجانب من جوانب التربية الاسلامية فى المغرب ،
وقد أدى ذلك الى انقسام الباحثين الذين تناولوا هذا الموضوع
الى فريقين :

فريق ذكر أن الحكام الموحيدين هم أول من أسسوا المدارس
فى المغرب والأندلس وقسموا المدارس التى انشأها الموحدون
الى ثلاثة أنواع متخصصة هى :

أولا : المدرسة العامة لتخريج الموظفين أو الحفاظ الموحيدين
وتكوين الاطار الادارى . وذلك جريا على العادة
المألوفة فى عموم المغرب ، ان كل دولة جديدة تؤسس
معهدا جديدا لاجراج متوظفيها حتى تثق بهم وتثق
بسلوكهم الادارى الذى يجب أن يتمشى منسجما مع
سياسة الدولة المحدثه . ثم هى تقضى أو تحاول أن
تقضى على مدرسة الدولة السابقة حتى تستأصل كل
عنصر من عناصر سياستها التى اذا بقيت شوشت
عليها ولا تأمن أن تقلبها رأسا على عقب (٧) .

(٦) مجهول : الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية . نشر محمد بن ابى شنب
(الجزائر ١٩٢٠) ص ١٠٠ .

(٧) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ . الدار البيضاء ١٩٦٥ م . ٣٦٨ ،
عثمان الكعك : محاضرات ص ٥٥ .
Scott S. P. : History of Moorish Empire V. 2, p. 297.

ثانيا : المدرسة الملكية لتعليم الأمراء الموحيدين ، وكان الغرض من تلك المدرسة الهاء الأمراء بالتعليم على نهج معين حتى لا يكثر فراغهم فتكثر مطامعهم (٨) .

ثالثا : مدرسة تعليم فن الملاحة بمدينة الرباط (٩) ، ولعل هذه المدرسة البحرية هي الأولى من نوعها فى العالم الاسلامى ، اللهم الا أن تكون ديار الصناعة لانشاء السفن (١٠) .

أما الفريق الثانى من الباحثين فقد أنكروا على الموحيدين تأسيسهم للمدارس وزعموا أن تأسيس المدارس فى المغرب من مظاهر التقدم العلمى لعصر بنى مرين فيذكر أحدهم : «ولا صحة عندنا لما ذكره ابن أبى زرع فى أخبار يعقوب عبد المؤمن المنصور الموحدى (المتوفى سنة ٥٩٥ هـ) من أنه أنشأ المدارس فى بلاد افريقية والمغرب والاندلس . اذ ليس هناك ما يؤيد هذا القول فى مصادر التاريخ المغربى الأخرى . ولو قد قام يعقوب أو غيره من ملوك الموحيدين بانشاء شىء من المدارس لبقيت هذه المدارس الى عصور من خلفهم ومن غير المعقول أن يكونوا قد أسسوا شىئا منها ثم انقرض . اذ المدة بين وفاة هذا الملك الموحدى وقيام الدولة المرينية لا تكاد تبلغ القرن من الزمان . وهى مدة غير كافية لاختفاء المدارس من الوجود تماما بحيث لا يلمس لها أحد من أهل العصور التالية أثرا أو تبقى لها باقية . والظاهرة السائدة فى حضارة الاسلام أن أمثال هذه المؤسسات تمتاز فى الغالب بطول الاجل والقدرة على البقاء على الرغم من تقلب السياسات

(٨) ابن أبى زرع : الانيس المطرب ص ١٤٣ ، عثمان الكعاك : محاضرات ص ٥٥ .

(٩) ابراهيم حرركات : المغرب عبر التاريخ (الدار البيضاء ١٩٦٥) ص ٣٦٨ ، عثمان الكعاك : محاضرات ص ٥٥ .

(١٠) عثمان الكعاك : محاضرات ص ٥٥ .

لاعتمادها على نظام الوقف فى حياتها المالية وملتانة عمارتها
وقوة بنيانها» (١١) .

لكن هذه الأسانيد التى ذكرها الباحث لانستطيع أن
نجعلها فيصلا فى القضية خاصة بعد أن نقرا ما ذكره الاستاذ
عبد العزيز بن عبد الله فى كتابه مظاهر الحضارة المغربية
(القسم الثانى) والذى يقول فيه : «والقصور الموحدية
وكذلك المدارس لم يبق منها شئ وقد انمحق كذلك أثر
المارستان الذى بناه المنصور ، والذى وصفه المراكشى فى
المعجب بأنه لا مثيل له فى الدنيا كل ذلك قد اندثر ولم يبق
منه شئ ، فما الذى يمنع أن تندثر المدارس هى
الأخرى ؟!»

ونحن حينما نضيف الى ما سبق أن الموحدين كانوا
أصحاب دعوة اعتمدوا عليها فى حكم المغرب ، فان هذا يكون
أدعى الى تأسيس المدارس بهدف نشر تعاليمهم ومفاهيمهم
الجديدة على شعب المغرب ، وجعل الاطار الادارى أو العسكرى ،
أو حتى جمهور العلماء الموجه للرأى العام يساير نزعات
الدولة الجديدة ، ويرتضى ببرامجها ، ويهتف لقراراتها ،
ولكنه فى هذه الحالة يكون الفريق الآخر الذى أنكر على
الموحدين تأسيسهم للمدارس صدقوا أيضا فى زعمهم .
لان تلك المدارس التى ورد أن أسسوها لم تكن مدارس
بمفهوم المدارس الخاصة ذى الأهداف المحددة الذى عرفه
المغرب فى عصر بنى مرين الذين لم يستندوا فى حكمهم الى
دعوة اصلاحية دينية خاصة كما فعل الموحدون ، بل كانت
حركتهم حركة سياسية محضة لم تلبس ثوب الدين ، وكان
اعتمادهم فى الابقاء على الحكم مرجعه الى قوتهم الذاتية

(١١) محمد عبد الرحيم غنيمه : الجامعات ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(١٢) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية (القسم الثانى) الدار البيضاء ،

١٩٥٨ م . ص ٥٣ ، ٥٤ .

فقط . وبهذا يكون كل من الفريقين صادقا في دعواه اذا
ماحدنا مفهوم المدرسة في كل من العصرين .

وأول مدرسة أنشأها بنو مرين في المغرب هي مدرسة
الحلفائيين بمدينة فاس سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م (١٣) وهي
المدرسة التي عرفت بمدرسة الصفارين لأنها أقيمت بالقرب
من السوق الذي تصنع فيه اوانى النحاس الأصفر ولما تم
بناؤها عين لها السلطان المدرسين وأجرى على طلبتها النفقة
كما أنه زود المدرسة بخزانة كتب (١٤) . ولم تكن مدرسة
الصفارين هي المدرسة الوحيدة التي أقامها السلطان
أبو يوسف، وانما أنشأ مدرسة أخرى بمدينة مراكش (١٥) .
ثم جاء السلطان أبو سعيد بن يعقوب بن عبد الحق المريني
فبنى في الحى الجديد من مدينة فاس مدرسة فاس الجديدة أو
مدرسة المدينة البيضاء سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م (١٦) كما
بنى السلطان أبو سعيد أيضا المدرسة العظمى أو مدرسة
الطارين بفاس سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م وموضعها بازاء
جامع القرويين وأشرف على انشائها الشيخ العالم أبو محمد
عبد الله بن قاسم المزوار وحضر السلطان بنفسه عملية
الشروع في بنائها ووضع حجر الأساس بها : «فجاءت آية فن
الدهر لم يبن مثلها ملك قط قبله وأجرى بها ماء العين
الغزير ورتب الفقهاء لدراسة العلم وأسكنها الطلبة وقدم

(١٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر (بولاق ١٢٨٤ هـ) ج ٧ ص ٢١٠ ،
الجزائري . زهرة الأس في بناء مدينة فاس . تحقيق : الفرد بل (الجزائر ١٩٢٢) ص
٧٤ ، ٧٥ ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٥٤ ، محمد الفاسي : نشأة الدولة المرينية
ص ٢٤ ، ٢٥ روجيه لاتورنو : المرجع ذاته ص ٢٨ .

(١٤) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٢١٠ ، الجزائري : ص ٧٤ ، ٧٥ ، السلاوي :
ج ٢ ، ص ٥٤ ، محمد الفاسي : نشأة الدولة المرينية ص ٢٤ ، ٢٥ روجيه لاتورنو :
المرجع ذاته ص ٢٨ .

(١٥) محمد الفاسي : نشأة الدولة المرينية ص ٢٥ .

(١٦) ابن أبي ذرع : الأنييس المطرب ص ١٨٠ .

فيها اماما ومؤذنا وخدمة يقومون بأمرها وأجرى على الكل
المرتبات واشترى الأملاك ووقف لها احتساباً لله تعالى ورجاء
ثوابه» (١٧) .

وبنى الأمير أبو الحسن بن أبي سعيد وهو ولي العهد في
حياة أبيه مدرسة الصهرريج بفاس وموضعها غربى جامع
الاندلس من حضرة فاس وبني حولها سقاية ودار وضوء ،
وفندقا لسكنى طلبة العلم وجلب الماء الى ذلك كله من عين
خارج باب الحديد . أحد أبواب فاس وأنفق على ذلك أموالا
جليلة، تزيد على مائة ألف دينار وحبس عليها رباعا
كثيرة (١٨) . وتسمى هذه المدرسة أيضا المدرسة الكبرى
وهي لاتزال باقية الى اليوم (١٩) .

وقد بنى السلطان أبو الحسن المرينى بعد اعتلائه عرش
المغرب المدرسة العظمى في مدينة مراكش قبلى جامع ابن
يوسف . يقول السلاوى : «ومن وقف على هذه المدرسة وتأمل
تنجيدها وتنميقها قدر هذا السلطان ، وعلم عظم همته
ومحبته للعلم وأهله» (٢٠) .

كما بنى السلطان أبو الحسن المدرسة العظمى بمدينة
سلا قبل أن يبني المدرسة المصباحية بفاس بحوالى أربع أو
خمس سنوات (٢١) . وقد كانت تلك المدرسة من المدارس
العالية المتخصصة فى دراسة الطب (٢٢) . أما المدرسة

(١٧) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٥٤ ، ابن ابى زرع : الأئيس المطرب ص ٢٨١ ،
محمد عبد الرحيم غنيمة : الجامعات الاسلامية ص ١١٢ ، ١١٣ .

(١٨) ابن ابى زرع : الأئيس المطرب ص ٢٨٠ ،
Marcais : Manuel d'Art Musuliman tome II, p. 504.

Marcais : Op. Cit., tome II, pp. 504-514. (١٩)

(٢٠) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٨٦ .

Marcais : Manuel d'Art Musulman tome II, p. 505. (٢١)

(٢٢) محمد الفاسى : نشأة الدولة المرينية ص ٣٠ .

المصباحية فقد أنشأها السلطان أبو الحسن سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٥٢م وموضعها جوف جامع القرويين ، وسبب تسميتها بذلك الاسم أن السلطان أبا الحسن لما أنشأها فوض الفقيه أبا الضياء مصباح بن عبد الله الياصوتي للتدريس بها فنسبت إليه ، كما أنها تسمى أيضا مدرسة الرخام (٢٣) .

ولم تكن هذه هي كل المدارس التي أنشأها السلطان أبو الحسن وإنما أنشأ في كل من مكناسة ، وطنجة ، وسبتة ، وأنفا ، وازمور ، وآسفى ، واغمات ، والقصر الكبير ، والعباد بظاهر تلمسان ، والجزائر ، مدرسة ، كما أنشأ بمدينة تازا القديمة مدرسة الحسن (٢٤) .

وأنشأ السلطان أبو عنان فارس بن أبي الحسن المريني المدرسة العنانية بمدينة فاس سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩م (٢٥) وهى من أكبر مدارس المغرب والتي لاتزال باقية حتى اليوم (٢٦) .

وفى سنة ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥م أتم السلطان أبو عنان بناء المدرسة التي كان قد بدأ بناءها السلطان أبو الحسن بمدينة مكناس ، وقد عرفت تلك المدرسة باسم المدرسة العنانية نسبة الى السلطان أبي عنان الذى أتم بناءها (٢٧) .

ويبدو أنه لم تكن تلك المدارس التي ذكرناها هي كل ما بناه سلاطين بني مرين حيث يشير السلاوى الى كثرة آثار

(٢٣) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٨٧ .

(١) ابن مرزوق : المسند ص ٢٧٣ .

(٢٥) Marcais : Manuel d'Art. tome II, pp. 504-517.

مصدر الفاسى : التعريف بالمغرب ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٢٦) محمد عبد الرحيم غنيمية : الجامعات ص ١١٤ .

(٢٧) Marcais : Op. Cit., tome II, pp. 504-517.

بنى مرين من المدارس فيقول : «وبالجملة فقد كان لبنى مرين جنوح الى الخير ومحبة في العلم وأهله تشهد بذلك آثارهم الباقية الى الآن في مدارسهم العلمية وغيرها» (٢٨) .
ويبقى أن نشير الى أن بعض هذه المدارس كان بدءا لمرحلة التخصص العلمي لمبادئ التعليم حيث نجد من بينها مدرسة للقراءات السبع (٢٩) . وأخرى للعلوم الطبية (٣٠) .

مدارس الطب العليا :

عرف عصر بنى مرين في المغرب نوعين من معاهد التعليم الطبي هما : المدارس الطبية النظرية ، والبيمارستانات (المستشفيات) التي تمثل فيها الجانب العملي . ومنذ أن تقلد بنو مرين زمام الأمور في بلاد المغرب ، وهم يحرصون على اقامة المستشفيات أما المدارس الطبية النظرية فاننا لانعلم الا بالمدرسة العظمى التي أنشأها السلطان أبو الحسن المريني في مدينة سلا (٣١) لتكون مدرسة عليا متخصصة في العلوم الطبية (٣٢) ، الا أنه يبدو أن حركة بناء البيمارستانات كانت أوسع انتشارا ، بل وصاحبت قيام دولة بنى مرين منذ سنواتها الأولى ، فقد كانت البيمارستانات في تلك الفترة من العصور الوسطى تمتاز بصلاحية كبيرة لتعليم الطب حيث الحالات المرضية ماثلة أمام أعين المتعلمين ، والأدوية والعلاجات قريبة متوافرة (٣٣) .

(٢٨) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٥٤ .

(٢٩) روجيه لاتورنو : فاس ص ١٧٥ .

(٣٠) Marçais : Manuel d'Art tome II, p. 554.

(٣١) Marçais : Op. Cit., tome II, p. 514

(٣٢) محمد القاسي : نشأة الدولة المرينية ص ٣٠ .

(٣٣) محمد عبد الرحيم غنيم : الجامعات ص ١١٨ .

ولهذا نرى السلطان يعقوب بن عبد الحق - أول سلاطين
بنى مرين - يحرص على بناء المارستانات ، وتعيين الأطباء
لها (٣٤) . ثم تابع سلاطين بنى مرين الاهتمام ببناء
البيمارستانات فأنشأ السلطان يوسف بن يعقوب مارستانا
بمنصورة تلمسان (٣٥) . كما بنى السلطان أبو الحسن
المريني بفاس البيمارستانات (٣٦) ، واهتم بتجديد إحدى
المستشفيات التي كانت بالقرب من القيسارية بفاس (٣٧) .
كما أنه اهتم أيضا بالعلاج الطبيعى حيث أنشأ (حمة خولان)
على عين من المياه المعدنية الساخنة (٣٨) .

وقد تولى إدارة هذه البيمارستانات نظار تعيينهم الدولة
لهذا الغرض ومن الذين تولوا إدارة بيمارستان فاس فى عهد
السلطان أبى عنان المرينى محمد بن القاسم بن أبى بكر
القرشى الملقب (٣٩) . وكان على الطالب متى أتم دراسته
فى فن من فنون الطب أو كتساب معين فيه تقدم الى رئيس
الأطباء وطلب منه اجازته للاشتغال بالطب (٤٠) .

المساجد :

كانت المساجد فى المغرب كسائر بلدان العالم الاسلامى
على رأس معاهد التعليم والثقافة ، ولم تمنع فكرة انشاء

-
- (٣٤) مجهول : الذخيرة السنية ص ١٠٠ ، السلاوى : الاستقصا ج ص ٣٢ .
(٣٥) ابن خلدون : المعبر ج ٧ ص ٢٢١ .
(٣٦) ابن مرزوق : المسند ص ٢٧٦ .
(٣٧) روجيه لاتورنو : فاس ص ٤٣ .
(٣٨) الجزائى : زهرة الاس ص ٢٦ ، ٢٧ .
(٣٩) ابن القاضى : جئوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام بمدينة فاس (فاس
١٣٠٩ هـ) ص ١٩١ .
(٤٠) ابن عبد الظاهر : تشرىف الايام والعصور فى سيرة الملك المنصور . تحقيق :
مراد كامل . القاهرة ١٩٦١ م ص ٢٣٠ ، أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات فى الاسلام
دمشق ١٩٣٩ م . ص ٤٣ .

المدارس وانتشارها فى دولة بنى مرين من أن يبقى المسجد محل تعليم ، بل انه ارتفع طبقة فصار للتعليم المتوسط ، أو طبقتين فصار للتعليم العالى (٤١) . وقد كانت المساجد على نوعين .

(أ) المساجد الكبيرة الجامعة :

وهى التى تقوم باسئائها الحكومة أو هى تتبعها ، وهى التى ترتب لها الأئمة ، وتتولى الانفاق عليها ، ويقوم بأمرها السلطان أو من يفوض اليه شئونها كالقاضى الذى ينصب لها الامام فى الصلوات الخمس والجمعة والعيدى والحسوفين والاستسقاء (٤٢) .

(ب) المساجد الصغيرة :

وهى غير تابعة للحكومة فلا دخل لها فى ادارتها ، ويقوم بإدارة مثل هذه المساجد أهالى الأحياء التى تقع بها ، وهم الذين يتولون الانفاق عليها ، وترتيب الأئمة للصلاة فيها (٤٣) .

وقد اهتم حكام المغرب ببناء المساجد الجديدة ، كما اهتموا أيضا بترميم المساجد القديمة واصلاحها ، وتزويدها باحتياجاتها وكما اهتم المرابطون والموحدون ببناء المساجد الجامعة فى المغرب على نفس نمط جامع قرطبة . فقد اهتم أيضا بنو مرين ببناء المساجد الجامعة فى كل مدينة جديدة بنوها كالمسجد الجامع الكبير الذى بناه السلطان أبو يوسف

(٤١) عثمان الكماك : محاضرات فى مراكز الثقافة ص ٧٢ .

(٤٢) محمد عبد الرحيم غنيم : الجامعات ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

(٤٣) الواردى : الأحكام السلطانية . القاهرة ١٢٩٨ م ص ١٨٢ .

يعقوب بن عبد الحق فى مدينة فاس الجديد سنة ٦٧٧ هـ /
١٢٧٨م (٤٤) ، والمسجد الجامع بتلمسان الذى اتفق الرحالون
على أنهم لم يروا له ثانيا (٤٥) .

كما يشير ابن مرزوق الى مساجد أخرى غير هذه المساجد
التي أقيمت فى المدن الجديدة ، وأن تلك المساجد لاتقع تحت
الحصر وأنها بنيت فى سائر جهات الدولة (٤٦) .

وحرص بنو مرين على تهية المساجد كى تؤدى رسالتها
على أتم وجه ، فاهتموا بانارتها بالقدر الكافى حيث نجد
المسجد الجامع بفاس وقد علق به ثريا كان وزنها تسعة
قناطير وخمسة عشر رطلا ، وعدد كؤوسها مائة وسبعة
وثمانون كأسا (٤٧) .

ومن ذلك أيضا ما أمر به السلطان أبو عنان المرينى
بأن يوضع فى أعلى مآذن المساجد الموجودة بفاس صارى من
الخشب يرفع عليه بالنهار علم فى أوقات الصلاة ، وفى الليل
يوقد سراج مزهر ليستدل من بعد من لم يسمع نداء المؤذن ،
كما أمر بأن يرفع على الصارى فى أيام الجمعة علم أزرق
ليعلم الناس أن اليوم يوم جمعة (٤٨) .

ولقد لخص لنا الجزنائى الدور العلمى والثقافى الهام
الذى اضطلع به جامع القرويين بقوله : «وكان جملة من
الفقهاء يدرسون العلم فى مواضع من هذا الجامع ، وكانوا
أهل الشورى ممن يقتدى بهم يقصدهم الناس من أقطار
البلاد ، فمن متجرد لتلاوة القرآن ومن مدرس . ومن طالب

(٤٤) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٤٣ .

(٤٥) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر ص ٥٧ .

(٤٦) ابن مرزوق : المسند ٢٧١ .

(٤٧) ابن أبى ذرع : الذخيرة السنينة ص ١٦٢ ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٤٣ .

(٤٨) الكتانى : سلوة الانفاس ج ٣ ص ٢٢٥ ، الجزنائى زهرة الاس ص ٣٩ .

لما شاء من فنون العلم فى مجالس شتى وكان فيه أيضا جملة من العلماء والعباد يلتزمون به فقد تفرغوا للعبادة بعد تحصيل العلم ، ويقصدهم الناس للفتوى وطلب العلم» (٤٩) وتجدر الإشارة هنا الى أن جامع القرويين دخل مع دولة بنى مرين مرحلة جديدة فى تاريخه نتيجة لحرية الفكر التى كفلها الحكم المرينى للجميع فأصبح مركزا رئيسيا لاشعاع فقه المذهب المالكى على يد عدد كبير من علماء المالكية الذين جلسوا لتدريس هذا المذهب ، كما جلسوا فى غيره من المساجد والمدارس لا فى فاس وحدها بل فى المغرب كله ، بعد أن كانت كتب المذهب المالكى من المحظورات طوال فترة حكم الموحدين ، وقد بلغ من هيمنة المذهب المالكى فى عصر بنى مرين أن أحد علمائه بل لعله أكبر علماء مذهب الامام مالك فى تلك الفترة وهو عبد الرحمن بن عفان الجزولى كان يحضر مجلسه العلمى أكثر من ألف فقيه من فقهاء المالكية (٥٠) .

وهكذا شهدت الدراسة فى المساجد فى عصر بنى مرين نشاطا علميا ضخما واتخذت صورة الجامعات الاسلامية لاسيما فى جامع القرويين * والواقع أن جامعة القرويين قامت بدور هام للحياة الثقافية وذلك لكثرة من تعلم بها وتخرج فيها من العلماء والطلبة * فقد أخرجت كثيرا من أعلام الثقافة والفكر فى الفقه والكلام واللغة والأدب والطب والرياضيات من أمثال المحدث ابن رشيد السبتي (ت ٦٩٢ هـ) ، وابن البناء المراكشى الذى نبغ فى الرياضيات وخاصة علم الحساب والجبر والمعادلات (ت ٧٢١ هـ) (٥١) .

(٤٩) الجزائى : زهرة الاس ص ٨٣ .

(٥٠) الفرديل : الفرق الاسلامية فى الشمال الافريقى من الفتح العربى حتى اليوم .

ترجمة : عبد الرحمن بدوى (بنغازى ١٩٦٩) ص ٣٢٣ .

(٥١) محمد عبد الرحيم غنيمة : الجامعات ص ٤٤ .

مساكن الطلبة :

من مفاخر التعليم فى دولة بنى مرين تخصيصه مساكن للطلبة ، حتى يتحقق لهم الانقطاع للعلم * والتفرغ للتحصيل والدرس * وكان هذا النظام خير مايمكن أن يقدم الى طلاب فيهم الكثير من الغرياء النازحين من مختلف الأقاليم المغربية لطلب العلم *

وكان تأسيس المدارس النظامية بفاس وغيرها من مدن المغرب فى العصر المرينى التطبيق العملى لانتشار المساكن الملحقة بالمدارس حيثما سارت الحركة المدرسية فى ربوع المغرب * فقد كانت المدارس التى أنشأها سلاطين بنى مرين مساكن للطلاب ، كما كانت أماكن للتعليم حيث اعتمدت فى تصميمها المعمارى على قاعة كبيرة للدرس اصطفت على جوانبها غرف الطلبة أو قاعة للنوم فى بعض الأحيان من طابقين يتوسطهما صحن مكشوف ، وقد تضمنت مصلى صغيرا لتؤدى فيه الصلوات * وكانت هذه المدارس تقدم للطلاب الغرياء غرفة لكل طالب ، فقد كان فى بعض هذه المدارس مايزيد على المائة غرفة ، فلقد احتوت المدرسة المصباحية بفاس على مائة وسبع عشرة غرفة (٥٢) *

وبعد أن تدفق الطلاب كانت الغرفة الواحدة تخصص لطالبين أو حتى لثلاثة من الطلبة ، ولم تكن تضيق بهم (٥٣) *

وكانت مساكن الطلبة هذه جميلة المعمار آنيقة البناء مزخرفة بالنقش العربى مكسوة الجدران بالزليج * تتوافر فيها أسباب الراحة والصحة حتى ينصرف الطالب الى حضور

(٥٢) جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية * ترجمة محمد مزالى ، والبشير ابن سلامة (تونس ١٩٧٨) ج ٢ ص ٢٤١ *

(٥٣) روجيه لاتورنو : فاس ص ١٧٩ *

حلقات الدروس والمطالعة بالمكتبة واعداد الدروس بغرفته، ولايتكلف الطالب نظير كل هذا أى شيء مادى (٥٤) .

وروى أنه فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) كانت تلك المساكن الطلابية تقدم لنزلاتها من الطلبة المؤن والثياب طيلة مدة اقامتهم فيها وكانت الأوقاف الخيرية هى التى تتحمل تلك النفقات .

ولم تكن مساكن الطلبة هذه مقصورة على الطلاب فحسب ، وانما كان يقيم بها أيضا بعض العلماء والأساتذة والمدرسون ، ولم يكن من الضرورى أن يقيم الأستاذ بالمدرسة التى يقوم بالتدريس فيها ، فقد يكون سكنه بمدرسة وتدرسه بأخرى غيرها (٥٥) .

وكان يقوم بالخدمة داخل تلك المدارس ومساكن الطلبة الملحقة بها طائفة من صغار الموظفين والخدمة الذين كانوا يعرفون باسم القومة والفراشين (٥٦) . والتى كانت مهمتهم تنحصر فى خدمة تلك الأماكن وإيقاد مصابيحها وتنظيفها (٥٧) .

أما المدة المحددة لسكنى الطلبة فى تلك المساكن الطلابية والتى تشببه الى حد كبير المساكن الجامعية فى أيامنا هذه فقد كانت ست عشرة سنة بينما كانت فى تونس خمس سنوات فقط (٥٨) .

(٥٤) عثمان الكماك : محاضرات فى مراكز الثقافة ص ٥٧ .

(٥٥) محمد عبد الرحيم غنيمة : الجامعات ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

(٥٦) المرجع السابق : ص ٢٨٢ .

(٥٧) المقرئى : الخطط ج ١ قسم ٣ ملاحق ص ١٠٤٦ .

(٥٨) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٩٨ .

المكتبات :

يبدو أن ابتداء تأسيس المكاتب العامة بالمغرب كان في أواخر عهد الموحدين ، وأن الذى أسس أول مكتبة عمومية بالمغرب هو أبو الحسن الشاربي المتوفى سنة ٦٤٩ هـ حيث أوقف بسببته خزانة مدرسته وهى أول خزانة وقفت بالمغرب (٥٩) . وقد حرص سلاطين بنى مرين على تدعيم النهضة التعليمية فى دولتهم بإنشاء المكتبات اللازمة ، والتي تساهل تلك النهضة التعليمية فى البلاد ، ولتكون ركائز قوية للحركة الثقافية التى عمت الربوع المغربية فى العصر المرينى . فأول سلاطين بنى مرين يعقوب بن عبد الحق حرص على أن يحصل على مجموعات الكتب الاندلسية من أيدي غاصبيها الأسبان ، وقد وصل من شدة حرصه على ذلك أنه كان يشترط استرداد هذه الكتب فى معاهدات الصلح بينه وبين الأسبان ، ومثال ذلك ما فعله مع سانجه (سانشو) ملك أسبانيا المسيحية عندما عقد معه الصلح سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م (٦٠) ففى كتاب الاستقصا للسلوى : «وسأل منه السلطان أن يبعث اليه بكتب العلم التى بأيدي النصارى منذ استيلائهم على مدن الاسلام فبعث اليه منها ثلاثة عشر حملا فيها جملة من مصاحف القرآن الكريم وتفسيره كابن عطية والثعلبى ، ومن كتب الحديث وشروحاتها كالتهذيب والاستنكار ، ومن كتب الأصول والفروع واللغة العربية والأدب وغير ذلك . فأمر السلطان رحمه الله بحملها الى فاس وتجبيسها على المدرسة التى أسسها بها لطلبة العلم (٦١) .

(٥٩) محمد المنونى : العلوم والآداب والفنون ص ٢٧٨ .

(٦٠) محمد عبد الرحيم غنيم : الجامعات ص ١١١ .

(٦١) السلوى : الاستقصا ج ٢ ص ٣١ .

ومن المدرسة انتقلت فكرة المكتبة الى المساجد وبعض المؤسسات الأخرى كالربط والخوانق (٦٢) * وأعظمها مكان بقصر السلطان (٦٣) *

وقد اقتفى أثر السلطان يعقوب بن عبد الحق في هذه المنقبة الشريفة بنوه من بعده ، فاستكشروا من الكتب ووقفوا عدة خزائن منها لطلبة العلم بجامع القرويين بمدينة فاس ولما أتم ابن خلدون تاريخه أهدى هذه الخزائن نسخة منها ، ولازال من هذه النسخة مجلدان بالجامع المذكور وعلى غلاف أحدهما نص عبارة الوقف (٦٤) * وإذا كانت خزائن دور العلم أول مكتبات جامعية في تاريخ المغرب الا أن فكرة انشاء دار مستقلة للكتب لم تكن معروفة حتى أوائل العصر المريني وقد تمخضت النهضة التعليمية ، والحركة الثقافية التي شملت كل ربوع دولة بنى مرين عن بعث تلك الفكرة في عهد السلطان أبي عنان المريني ، وجاءت تلك المكتبة العامة على نحو ما هو معروف لدينا الآن اذ احتوت هذه المكتبة على كتب شملت كل علوم العصر من علوم الأبدان والأديان واللسان والأذهان ، وغير ذلك من العلوم على اختلافها وتنوع ضروبها وأجناسها (٦٥) *

وقد ألحق أبو عنان بهذه المكتبة خزانة ضخمة للمصاحف، أعد تصميمها بنفسه وأودع فيها عددا كبيرا من المصاحف الشريفة الحسنة الخطوط والمنمقة ، وقد كتب فوق هذه الخزانة مانصه : «الحمد لله أمر بإنشاء هذه الخزانة السعيدة

(٦٢) محمد عبد الرحيم غنية : الجامعات ص ٢٨٤ *

(٦٣) عثمان الكمالك : الحضارة العربية في حوض البحر المتوسط القاهرة ١٩٦٥ م *

ص ٦٤ *

(٦٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٨ *

(٦٥) الجزائى : زهرة الأس ص ٦٩ *

مولانا أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين عبد الله فارس
أيد الله أمره ، وأعز نصره بتاريخ شوال سنة خمسين
وسبعمائة رزقنا الله خيرها» (٦٦) * ولم ينحصر انشاء
المكتبات العامة على العاصمة فاس وحدها ، بل تعداها الى
بعض المدن المغربية الأخرى ، مثل مدينة سبتة والتي كانت
لها شهرة خاصة بكثرة الكتب (٦٧) *

وجاء تنظيم تلك المكتبات على نحو ما هو معروف الآن
من استخدام أمناء للمكتبات لحفظ الكتب وتنظيمها ،
واستقبال روادها ، وتقديم الكتب التي يريدون الاطلاع
عليها (٦٨) *

ومما تقدم يمكن أن نقول أن المكتبات بأنواعها المختلفة
كانت من المؤسسات العلمية الأساسية التي أسهمت فى تغذية
التربية الاسلامية بين أبناء المجتمع المغربى * كما أنه يرجع
الى هذه المكتبات الفضل فى صيانة الكثير من تراث الاسلام
الفكرى فى ربوع المغرب ، ولازالت مكتبة القرويين بفاس
وغيرها فى المدن الأخرى تحوى بين أركانها نفائس غالية من
ثروة الاسلام العلمية (٦٩) *

عمارة المؤسسات التعليمية :

عمارة المدرسة :

قام تصميم المدرسة فى المغرب على مستطيل يتوسطه

(٦٦) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٤٦ *

(٦٧) المقرئ : نفع الطيب ج ٦ ص ٢١٠ *

(٦٨) الجزائى : زهرة الآس ص ٦٩ ، ابن القاضى ص ٤٦ *

(٦٩) محمد عبد الرحيم غنيم : الجامعات ص ٢٨٨ *

صحن مكشوف به حوض كبير للماء ، وفي أحد الضلعين القصيرين تقوم قاعة التدريس ، وحول الضلعين الطويلين تقوم مساكن الطلبة ، كما تضمنت مصلى صغيرة لتؤدي فيها الصلوات (٧٠) .

وهكذا جاء تصميم المدرسة يختلف اختلافا بينا عن المسجد لاختلاف الغاية التي قام من أجلها كل منهما فقد روعيت فيها الأغراض التعليمية واعتبرت عنصرا أساسيا في تكوينها المعماري ، كما جاءت المدرسة المغربية مختلفة اختلافا بينا أيضا عن المدرسة في المشرق ، فبينما اعتمدت المدرسة في المغرب على قاعة واحدة للتدريس اعتمدت المدرسة في المشرق على قاعتين أو أربع قاعات ، والسبب في ذلك يرجع الى أن أهل المغرب كلهم تقريبا يتبعون مذهب الامام مالك (٧١) ، ولهذا لم تكن هناك حاجة الى قاعات أخرى لتدريس مذاهب أخرى . وتميزت بعض المدارس التي أنشأها المرينيون بعد مدرسة الصفايين باتساعها ، فقد احتوت المدرسة المصباحية - كما ذكرنا - على مائة وسبع عشرة غرفة وتحفظ بمظلة جميلة من الخشب المنقوش ، كما تمتاز بأناقة دهليزها ومدخل مصلاها (٧٢) .

ويؤكد ابن مرزوق ، وهو شاهد عيان أن مدارس بني مرين بصفة عامة كانت آية في فن البناء والعمارة حيث اشتملت عناصر عمارتها على كل ما هو جديد ومتطور سواء كان ذلك خاص بالبناء أو النقش والزخرفة أو الفرش على

(٧٠) جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ج ٢ ص ٢٤١ .

(٧١) الفردنل : الفرق الاسلامية ص ٣٢٢ .

(٧٢) جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ج ٢ ص ٢٤١ .

اختلاف أنواعه من الخزف والرخام والخشب المحكم
النقش (٧٣) •

وتمثل المدرسة العنانية التي أسست سنة ٧٥٠ هـ /
١٣٤٩ م بداية مرحلة انطلاق جديدة فى فن العمارة ،
وتعتبر النموذج الصادق للفن المميز للعمارة المرينية (٧٤)
الذى اهتم بالنقش على الجيصر والخشب ولا يترك موصعا فى
الجدران أو السقوف ، أو الأبواب ، الا ونقشوه ، كما بالغوا
فى زخرفة الأرضيات ، وسفل الحوائط بالزليج (الخزف)
المختلف الألوان ، واستخدموا أيضا الرخام بجميع ألوانه ،
وأصبحت هذه من مميزات فن العمارة المرينية ، والذى أضفى
على منشآتها البهاء والعظمة فى أرق قالب (٧٥) •

وهذه المدرسة العنانية التى استغرق بناؤها سبع سنين
كانت ذات باب خشبى مصفح بالبرونز المتقن الصنع ،
ويؤدى مصراعا الى مدخل ذى درجات حافاتها من الجزع
والزليج ، وعلى جوانبه دكات من الزليج المتعدد الألوان ،
أما صحن المدرسة الفسيح فمغطى بالرخام الأبيض والوردى
وبالجزع وقد كسيت جوانبه بالفسيحساء وفتحت نوافذ غرفة
وسط زخارف الجص ، وفى أعلى الصحن تحتضن الدعائم
مداميك العقود الكبيرة الخشبية التى تحمل الافريز الأعلى
المزخرف بالآيات القرآنية ، والمحمى بمظلة فى غاية الروعة
وتضىء كوى بلوريه المصلى المكون من بلاطتين تميزنا بدقة
أطرافهما الهندسية المتداخلة على أكمل وجه ، كما كانت له
ميضاه رائعة الصورة (٧٦) •

(٧٣) ابن مرزوق : المسند ص ٢٧٣ •

(٧٤) محمد الفاسى : التعريف بالمغرب القاهرة ١٩٦١ م ص ٤٧ ، ٤٨ •

(٧٥) الجزائى : ص ٧٠ ، محمد الفاسى : نشأة الدولة المرينية ص ٣٠ •

(٧٦) جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ج ٢ ص ٢٤١ •

وقد تميزت تلك المدرسة العنانية دون غيرها من المدارس بالقاعات الكبيرة بحيث تكون قاعات للمحاضرات فقط ، ومن ثم فقد اختط لها من أول الأمر ألا تكون أماكن إقامة للطلبة فحسب ، بل معهدا خاصا بالتعليم ، كما تميزت تلك المدرسة أيضا بمنارتها (مئذنتها) ومنبرها مما يثبت أن صلاة الجمعة كانت تقام فيها (٧٧) . ويبدو أن هذا النمط الجديد في بناء المدرسة اتخذ نقلا عن مدارس الشرق في ذلك الوقت حيث كانت المدرسة مكان عبادة ودرس ، ولم يميزها عن المسجد سوى مساكن الطلبة التي كانت تلحق عادة بالمدارس ليعيش بها الطلاب والمدرسون (٧٨) .

كما كانت المدرسة العنانية أول مدرسة في المغرب تقام بها منجانة (ساعة) لمعرفة الوقت قام بصناعتها أبو الحسن على بن أحمد التلمساني سنة (٧٥٨ هـ / ١٣٥٦ م) (٧٩) .

عمارة المسجد :

يعد المسجد الجامع بقرطبة (٨٠) المنبع الرئيسي الذي ارتوت منه فنون الاسلام في الأندلس والمغرب عصوره المختلفة ، ولهذا أصبح هذا الجامع المثل الأعلى لمساجد الأندلس والمغرب (٨١) .

(٧٧) روجيه لاتورنو : فاس ص ٤٤ .

(٧٨) د . محمد محمد أمين على : تاريخ الاوقاف في مصر في عصر سلاطين المماليك رسالة دكتوراه . آداب القاهرة ١٩٧٢ ، ج ١ ص ٣٠٣ .

(٧٩) الكتاني : سلوة الانفاس ج ٣ ص ٢٢٥ ، زهرة الآس الجزائى ص ٤٠ .

(٨٠) بناء الأمير عبد الرحمن بن معاوية في سنة ١٦٩ هـ ، واتخذ صورته النهائية بزيادة المنصور بن عامر في سنة ٣٧٧ هـ ، ولقد طبق عرفاء البناء بجامع قرطبة النظام التخطيطي للجامع الأقصى الذي أعاد الوليد ابن عبد الملك بناءه في سنة ٨٧ هـ (د . السيد عبد العزيز سالم : العمارة الاسلامية في الأندلس وتطورها مجلة عالم الفكر - المجلد الثامن - العدد الأول - ابريل - مايو - يونيو ١٩٧٧ ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٨١) د . السيد عبد العزيز سالم : قرطبة . ج ١ ص ٩١ .

ولم يختلف المسجد الجامع بقرطبة عن المساجد الجامعة الأخرى في العالم الاسلامي التي تميزت عن المساجد الخاصة او غير الجامعة بعناصره المعمارية الرئيسية التي التزم بها المسلمون (٨٢) ، وهى : بيت الصلاة (٨٣) الصحن (٨٤) ، المجنبتات (٨٥) . بالاضافة الى عناصر أخرى كالمئذنة التي لم يتفق المسلمون في تحديد مكانها او اعدادها في المسجد الواحد . كذلك وجد المنبر الذي يصنع من الخشب أو الرخام ، وكان يقام بجانب المحراب ليقف عليه الامام وهو يخطب حتى يراه ويسمعه المصلون بسهولة ، كما وجدت أيضا المقصورة ، وهى حاجز خشبي عادة يحدد جزءا من الصفوف الأولى في بيت الصلاة وكانت تخصص للخليفة وحاشيته وكبار رجال الدولة . كذلك ظهر في المسجد الجامع « كرسى السورة » وهو من الأثاث المستحدث فيه ، وكان يتخذ منه المقرئ مكانا يجلس فيه لتلاوة القرآن الكريم وحيانا أخرى كان يقوم

(٨٢) محمد توفيق بليغ : المسجد في الاسلام ص ٣٤٠ .

(٨٣) بيت الصلاة : هو المكان المسقوف الذى يصطف فيه المصلون خلف الامام لاداء الفريضة ، ويعتبر هذا « البيت » من أهم اجزاء المسجد الجامع ان لم يكن أهمها جميعا ، ويرتفع سقفه عادة فوق العقود التي تحملها الاعمدة أو الدعائم التي خست في صفوف متوازية ومنتظمة تحصر ما بينها ما يعرف « بالاساكيب » وهى الممرات الموازية لجدار القبلة الذى يتوسطه المحراب في الاساكيب والبلاطات ، وبين كل أربعة أعمدة أو دعائم مساحات مربعة الشكل تقريبا باسم « اسطوانات » كانت تعقد فيها حلقات الدرس . (محمد توفيق بليغ) : المسجد في الاسلام ، ص ٣٤٠ .

(٨٤) الصحن : وهو الجزء غير المسقوف الذى يلي بيت الصلاة وقد ترك دون سقف ليساعد على وصول الضوء في بيت الصلاة خاصة اذا كان هذا « البيت » كبيرا وعميقا ، وتتعدد فيه الاساكيب كما انه يتوسط المساحة التي يقام عليها المسجد الجامع في معظم الاحيان (محمد توفيق بليغ) المسجد في الاسلام : ص ٣٤٠ .

(٨٥) المجنبتات : وهى الاروقة المستوفة التي تحيط بالصحن من جهاته الثلاث الأخرى غير بيت الصلاة ، وكانت بدورها تتكون من رواق واحد أو أكثر . وإذا كان بيت الصلاة هو المكان الاصل المخصص لصفوف المصلين كما يدل عليه تسميته فان الصحن وأروقة المجنبتات كانت بدورها تستخدم في كثير من الاحيان لنفس الغرض لا سيما في حالة كثرة عدد المصلين (محمد توفيق بليغ) : المسجد في الاسلام ص ٣٤٠ ، ٣٤١ .

فيه « المبلغ » الذى يردد بعد الامام حتى يسمعه المصلون جميعا (٨٦) .

ويعد المسجد الجامع فى تازة الذى أنشئ سنة (٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م) من أصدق الأمثلة للفن المعماري فى عهد بن مرين والذى يتميز بقبته ذات المقرنصات الرائعة والزخرفة التى تتسم برقة الأشكال وتشعب الرسوم وتداخل التسطيرات والتوريقات والمقرنصات والزليجيات (٨٧) كما يعد مسجد العباد بالقرب من قبر الولي الصالح أبي مدين شعيب متحفا للعمارة الدينية المرينية ، حيث زين الزليج ، ومصلاه تتكون من خمس بلاطات ، وثلاثة صفوف ، وجدرانه وسقوفة ذات تربيعات مزخرفة بطلاء من الجص المنقوش ، ومحرابه عبارة عن فجوة ذات زوايا منظمة ، قوسها محمول على اسطوانتين لكل منهما تاج أنيق مسبوق بقبة مقرنصة ، ويحف بصحن المسجد رواق ذو دعائم منشورية الشكل ، أما المئذنة فهى بالأجر المشبك والخزف (٨٨) .

ويصف ابن مرزوق - وهو شاهد عيان - هذا المسجد الذى بنى فى عهد السلطان أبي الحسن (٨٩) فيقول : اشتمل (مسجد العباد) على الوضع الغريب وهو أن سقفه كله أشكال منضبطة بخواتم وصناعات نجارة على وجهة تخالف الجهة الأخرى فى الوضع قد رقمت على نحو ما يرقم عليه أشكال النجارة فلا يختلج فى النفس شكل ولا يعرض لها وهم أنها أشكال منجورة منقرشة وهى كلها مبنية أحكار بالأجر

(٨٦) محمد توفيق بلبح : المسجد فى الاسلام ، ص ٣٤١ .

(٨٧) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر ص ٥٨ .

(٨٨) جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ج ٢ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

(٨٩) ابن مرزوق : المسند ص ٢٧٠ .

والفضة ، واشتمل على المنبر. العجيب الشكل المؤلف من الصندل العاج والابنوس المذهب (٩٠) . أما مسجد سيدي الحلوى الذى بناه السلطان أبو عنان المرينى فقد احتوى على مصلى تشتمل على ثمانية أعمدة ، وعلى الواجهات الأربع لمئذنته أشكال من الفخار المموه بالمينا (٩١) .

وكما اهتم سلاطين بنى مرين بإنشاء المساجد الجديدة ، اهتموا أيضا بترميم المساجد القديمة واصلاحها وتزويدها باحتياجاتها . ففى عهد السلطان يعقوب بن عبد الحق زود مسجد القرويين ببيلة بباب الحفاة طولها سبعة وعشرون شيرا ، وهى مغشاة بالرصاص ومتصلة بخارج الباب وفوق هذا الباب اشباك من الخشب فتحت فيه أربع خوخات . وارتفاع هذا الباب ستة عشر شيرا ، ثم فرش أمام هذا الباب الفقيه القاضى أبو عبد الله محمد بن أبى العبر ناظر الاحباس (الاوقاف) بالرخام الأبيض والأحمر ، ويتدفق الماء من الجهة المعدة له نحو هذه البيلة وينصب على رخام أبيض وأزرق وأحمر يغسل فيه الحفاة أرجلهم ثم يغور الماء بعد ذلك فى قناة معدة لذلك (٩٢) .

كما زود أبو عبد الله أبى الصبر ناظر الاحباس سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م مسجد القرويين بعنزة فيها غرابة الصنعة ونقاسة الخشب واتقان الالصاق ودقة الخراط والنقش مايقضى بالعجيب (٩٣) .

وفى سنة ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م قام والى فاس أبو الحسن

(٩٠) ابن مرزوق : المسند ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

(٩١) جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٩٢) الجزائى : زهرة الأس ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٩٣) المصدر السابق ص ٦٥ .

على بن محمد الحدودى ببناء الباب المدرج بمسجد الأندلس.
بالعودة الأندلسية بفاس البالى على غرار الباب المدرج بمسجد
القرويين ، ووضع فى أسفل الباب نقيرا من الخشب ملس
بالرصاص ، وجلب اليه الماء من عيون ابن الصاوى ليدخل
عليه الحفاة ، وعمل عليه شبكا من خشب الأرز بباب يدخل
اليه من أراد الصعود الى أدراجه . ووضع فى نهاية الإدراج
بابا عظيما وضع عن يمين الخارج من أسفل الإدراج سقاية
منمقة بالجص والحجر المنجور ، وأنواع الأصباغ كل ذلك
ذلك بصناعة محكمة (٩٤) .

وفى سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م أمر السلطان يوسف
ابن يعقوب المرينى باصلاح مسجد الأندلس وتجديده وجلب
الماء اليه من نهر مصمودة وفى عهد حفيده ابى ثابت عامر
المرينى أعاد جلب الماء الى المسجد من العين الموجودة خارج باب
الحديد كما كان عليه فى أيام الناصر الموحدى وقد تولى
الاشراف على عملية الاصلاح أبو العباس أحمد الجياني (٩٥) .

الموارد المالية :

كان للتعليم فى عصر بنى مرين عدة موارد يستمد منها
المال اللازم الذى يغطى نفقات تلك النهضة التعليمية التى
شملت ربوع المغرب ، ويمكن حصر مصادر الأموال الخاصة
بالتعليم فى عصر بنى مرين فى أمرين اساسيين : أولهما :
الأوقاف ، وثانيهما : الهبات والاعانات . والى جانب ذلك
فقد كانت أموال الجزية التى تحصل من اليهود توجه احيانا
للانفاق منها على المؤسسات التعليمية (٩٦) .

(٩٤) الجزائى : زهرة الأس ص ٦٦ .

(٩٥) ابن أبى زرع : الانيس المطرب ص ١١٠ .

(٩٦) ابن أبى زرع : النخيرة السنية ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

الأوقاف :

وتسمى أيضا الاحباس ، وهى أهم موارد التعليم فى ذلك العصر على الإطلاق ، وأكثرها دخلا وادارا . واليهما يرجع الفضل فى بقاءه واستمراره وانتظام الحياة العلمية والدراسية فى معاهد التعليم بالمغرب . وقد تبلور العمل بنظام الأوقاف كنتيجة طبيعة للنهضة التعليمية والثقافية والاجتماعية التى شهدتها بلاد المغرب على يد سلاطين بنى مرين للأنفاق على المدارس والمؤسسات الثقافية والاجتماعية الممتدة التى أقاموها فى دولتهم ففسد بنى أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى أول سلاطين بنى مرين المدارس ورتب فيها الطلبة ، وأجرى لهم المرتبات فى كل شهر ، وأقام المساجد ، وأنشأ المستشفيات ، وأجرى عليها النفقات ، وخصص لها الأطباء ، وبنى الزوايا فى الخلوات وأوقف لها الأوقاف الكثيرة لاطعام عابرى السبيل وذوى الحاجات والأنفاق على كل هذه المؤسسات الهامة (٩٧) .

وسار سلاطين بنى مرين من بعد السلطان ابي يوسف يعقوب على نفس المنوال بخطى حثيثة حتى اعتلى السلطان ابو الحسن عرش دولة بنى مرين فأنشأ فى كل بلد من بلاد المغرب مدرسة ، وأقام المؤسسات الاجتماعية فى تازا ، ومكناس ، وسلا ، وطنجة ، وسبتة وأنفا (الدار البيضاء حاليا) وأزمور ، وآسفى ، واغمات ، ومراكش ، والقصر الكبير وتلمسان (٩٨) .

ولم تكن أية مدينة من المدن المغربية لتخلو من عائلات خصصت قسما من أملاكها للضمان الاجتماعى ، وهى الأوقاف

(٩٧) مجهول : الذخيرة السنية ص ١٠٠ .

(٩٨) ابن مرزوق : المسند ص ٣٥ .

المخصصة للخبز الذى كان يوزع يوميا وأسبوعيا حسب كمية
الريع لتلك الأوقاف . وهذا علاوة على الأوقاف الخاصة
بالمساجد والمستشفيات والمدارس ، والتي كان يتعيش منها
عدد كبير من المستخدمين الى جانب رواتب العلماء
والطلبة (٩٩) .

كما كانت هناك اوقاف من نوع خاص كالتى تصرف
على الزوجين الفقيرين بايوائهما مجانا فى بيت أبان الزفاف ،
وكالتى تنفق فى تجهيز العروس الفقيرة ، وأوقاف الأواني
المكسرة ، وتعهد تغذية الحيوانات والطيور ، وذلك بالاضافة
الى تأسيس الأسوار والقناطر والقنوات والسهر عليها وهكذا
تتسم الأوقاف فى عصر بنى مرين بأهمية كبرى نظرا للدور
الثقافى والاجتماعى الهام والذى حملت عبئه الأوقاف ،
وما زالت المغرب تحتفظ بصكوك تلك الأوقاف العديدة الى
يومنا هذا ، والتي تحتاج الى دراسة خاصة بها (١٠٠) .

الهبات والاعانات :

وتتصدر هذا المورد الهام لأهل العلم عطاءات البيت
المرينى الحاكم حيث شجع سلاطين بنى مرين وأمرؤهم أهل
العلم فى دولتهم ، واجزلوا لهم العطاء فهناك مثلا أعطى
السلطان يعقوب بن عبد الحق الشاعر عبد العزيز الملوzy
ألف دينار وخلعة على قصيدة نظمها ، واستعرض فيها سيرة
السلطان ، وفضله على الاسلام ، كما اعطى السلطان يعقوب
للفقيه ابو زيد الفاس مائتى دينار لانشاده تلك القصيدة فى
مجلسه يوم عين الفطر (١٠١) كما تبرع السلطان يوسف

(٩٩) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة ص ٧٤ .

(١٠٠) المرجع السابق ص ٧٦ .

(١٠١) ابن أبى ذر : الانيس المطرب ص ٢٤٨ ، السلاوى : الاشتقاق ج ٣ ص ٦٤

ابن يعقوب المرينى بخلخالين من الذهب زنتهما خمسمائة دينار من الذهب للمساهمة فى إعادة بناء الحائط الجوفى لمسجد القرويين الذى انتهى البناء فيه سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م (١٠٢) كما انفق الامير ابو الحسن المرينى قبل أن يعتلى عرش المغرب ما يزيد على مائة الف دينار لانشاء مدرسة الصهريج * هذا بخلاف ما جبسه عليها من ربا ع كثيرة (١٠٣) *

كما كانت مكافآت أبو الحسن نفسه بعد أن اعتلى العرش للعلماء فى غاية السخاء تشجيعا لهم على مواصلة العلم ، ومن الأمثلة الكثيرة تلك المكافأة التى حصل عليها الفقيه أبو عبد الله بن أبى زكريا العزفى حينما اهدى الى السلطان ابى الحسن كتابا ألفه فى ذم الخمر وبيان عيوبها حيث أمر السلطان أن يوضع الكتاب - وكان سفرا كبيرا - فى كفة ، والدراهم فى الكفة الأخرى (١٠٤) * وأيضا تلك المكافأة التى حصل عليها أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن السبيل التتاليمى حينما اهدى الى السلطان ابى الحسن اسطرلابا صنعه بنفسه فأعطاه السلطان مثل وزن الاسطرلاب دنائير من الذهب (١٠٥) *

ومن الأمثلة التى توضح استرخا ص كل نفيس فى سبيل التعليم ما فعله السلطان أبو عنان المرينى عندما زار المدرسة العنانية * عند اتمام بنائها ، وقام المهندس الذى تولى عملية انشاء المدرسة يعرض الملف الخاص بتكليف البناء حيث القى

(١٠٢) الجزائى : زهرة الأس ص ٢٨٠ *

(١٠٣) ابن أبى زرع : الانيس المطرب ص ٢٨٠ *

(١٠٤) ابن مرزوق : المسند ص ٢٠٥ *

(١٠٥) المصدر السابق : ص ٢٠٥ *

(١٠٦) الكتانى : سلوة الأنفاس ج ٣ ص ٢٢٥ *

ابو عنان بهذا الملف فى الوادى الذى يجلب الماء للمدرسة
ثم قال (١٠٦) .

ليس لما قرت العين ثمن لا بأس بالغالى اذا قيل حسن
كما يروى أنه كان من عادة السلطان ابى عنان اذا كان
فى عاصمة ملكه أن ينظم مسابقات فى الشعر وخاصة فى
مناسبة المولد النبوى الشريف فكان المنشد يقف على صفة
مرتفعة حتى اذا ما انتهى واعلن المحكمون من أصحاب
الكفاءات حكمهم على ما قال الشاعر . كان السلطان يمنح
الشاعر المبرز مائة قطعة من الذهب وفرسا وجارية ، ويلقى
عليه الثوب الذى يرتديه ، وكان يمنح كلا من الشعراء
الباقين خمسين قطعة من الذهب بحيث أن الجميع ينالهم من
احسانه (١٠٧) .

وطبيعى ألا تنحصر الهبات والاعانات والصدقات على
البيت المرىنى الحاكم بل كان هناك الكثير من أهل الخير المحبين
للعلم وأهله الذين كانوا يجودون بأموالهم تشجيعا وعونا
لأهل العلم على مطالب الحياة . كما كان بعض المدرسين
يأخذون أجورا من طلبتهم على تعليمهم ، وكان هذا الأجر
يحدد بالاتفاق بين المدرس والطالب (١٠٨) . وكثيرا ما كانت
الحكومة تنفق أموال الجزية على التعليم وخاصة التعليم الطبى
فى المستشفيات (١٠٩) .

(١٠٧) روجية لاتورتو : فاس ص ١٨٢ .

(١٠٨) محمد عبد الرحيم غنيبة : الجامعات الإسلامية، ص ٢٤٠ .

(١٠٩) مجهول : الذخيرة السنية ص ١٠٠ .

الفصل الثانى

العلوم النقلية والعقلية

أولا - العلوم النقلية :

انقسمت العلوم فى المغرب كما هو الحال فى جميع أرجاء العالم الاسلامى فى العصور الوسطى الى صنفين :
الصنف الأول منها أطلق عليه اسم : العلوم النقلية أو العلوم الشرعية (١) ، والصنف الثانى أطلق عليه اسم : العلوم العقلية أو الحكمية (٢) .

والعلوم النقلية أو الشرعية هى تلك العلوم التى يرجع الأصل فيها الى الشرعيات من الكتاب والسنة ، والتى هى مشروعة لنا من الله ورسوله ، ومايستتبعها من علوم لازمة لتمام الافادة منها (٣) .

وقد اشتملت العلوم النقلية أو الشرعية على :

علم التفسير ، علم القراءات ، رسم المصحف ، علوم القرآن ، علوم الحديث ، علم أصول الفقه ، علوم الفقه (ويتفرع عنه علم الفرائض) ، علم الكلام ، علوم اللسان العربى ، علم التصوف ، علم التاريخ ، علم تعبير الرؤيا (٤) .

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠١ .

(٢) المصدر السابق : ص ٤٠٠ .

(٣) المصدر السابق : ص ٤٠١ .

(٤) المصدر السابق : ص ٤٠١ .

التفسير :

هو علم يعرف به نزول الآيات ، وشؤونها ، وأقاصيصها ،
والأسباب النازلة فيها ، ثم ترتيب مكيتها ومدنيها ، ومحكمها
ومتشابهها ، وناسخها ومنسوخها ، وخاصها وعامها •
ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ومفسرها ، وحلالها وحرامها ،
ووعدها ووعيدها ، وأمرها ونهيها ، وأمثالها ، وغيرها (٥) •

وقد سار علماء المسلمين فى أول الأمر فى اتجاه التفسير
بالمأثور ، وهو الاعتماد فى التفسير على ما أثر عن رسول الله
— صلى الله عليه وسلم — وصحابته الكرام رضى الله تعالى
عنهم • وبعد ذلك ظهر اتجاه آخر فى التفسير ، وهو التفسير
بالرأى ، فمنهم من أصاب ، ومنهم من لم يوفق (٦) •

ومدرسة التفسير بالمأثور (٧) هى المدرسة التى سادت
فى الاندلس وان لم يخل الأمر من وجود بعض بذور مدرسة
التفسير بالرأى (٨) •

وأشهر المفسرين الذين ظهرُوا فى الاندلس هو
أبى عبد الرحمن بقى بن مخلد المتوفى سنة ٢٧٦ هـ /
٨٨٩ م (٩) •

(٥) التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون تحقيق : د. لطفى عبد البديع • القاهرة
١٩٦٣ م ص ٣٣ •

(٦) عبد الوهاب عبد المجيد غزلان : البيان فى مباحث علوم القرآن • القاهرة ص ٣٥ •

(٧) ظهرت مدرستان من مدارس التفسير فى الاسلام ، الأولى فيهما هى مدرسة
التفسير بالمأثور والتى تعتمد على التفكير النقلى الذى يستمد أصوله مما أثر عن الرسول
— صلى الله عليه وسلم — وصحابته الكرام رضى الله عنهم ، والثانية هى مدرسة
التفسير بالرأى والتى يعتمد على التفكير العقلى أو الفلسفى الذى يستمد أصوله من الفكر
العقل المتحرر • عبد الوهاب عبد المجيد غزلان : البيان فى مباحث علوم القرآن ص ٣٥ •

د. محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم فى الاندلس ص ٢٨٤ •

(٨) د. محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم ص ٢٨٤ •

(٩) المقرئ : نفح الطيب ج ٤ ص ١٦٢ •

وأبو محمد مكي بن أبي طالس ت ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م
الذي كتب تفسيره المسمى (الهداية) وهو من عشرة أسفار
ويعرف أيضا باسم تفسير القرطبي (١٠) *

وقد عرف المغرب على عهد دولة المرابطين بعض النشاط
المتعلق بدراسة تفسير القرآن الكريم * حيث نهض بأعباء
هذه الدراسة رجال الفكر والمعرفة الأندلسيون الذين انتقلوا
الى المغرب وهم يحملون معهم كثيرا من المعارف والعلوم لاسيما
الدينية (١١) *

ولما كان المرابطون متمسكين بالاسلام على مذهب الامام
مالك فقد نهج فقهاءهم وعلماءهم منهج التفسير الحرفي
للقرآن الكريم والحديث الشريف ورفضوا الأخذ بتأويل
المتشابه من الاي والحديث لأن الامام مالك عندما سئل عن
تفسير : «الرحمن على العرش استوى» * قال : الاستواء
معلوم والكيفية مجهولة والايمان به واجب والسؤال عنه
بدعة (١٢) *

أما كتب التفسير التي اعتمدت عليها الدراسات المذكورة
في المغرب في العهد المرابطي فهي بعض كتب التفسير التي
صنفها العلماء الاندلسيون المالكيون مثل : كتاب التفسير
الذي صنفه أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد ت ٢٧٦ هـ /
٨٨٩ م بالأندلس والذي قيل فيه انه لم يؤلف في الاسلام

(١٠) القرى : نفح الطيب : ج ٤ ص ١٧١ *

(١١) عبد العباس ابراهيم حمادى : الحركة الفكرية ص ٢٦٣ *

(١٢) عبد العباس ابراهيم حمادى : الحركة الفكرية والعلمية بمدينة مراكش منذ
تأسيسها حتى سقوط الدولة الموحدية ، وأثرها على المراكز الثقافية الاسلامية جنوب
الصحراء * رسالة ماجستير بكلية دار العلوم ١٩٨٠ *

تفسير مثله ولا تفسير محمد بن جرير الطبري
ولا غيره (١٣) .

ومن كتب التفسير الأخرى التي ذاع صيتها في بلاد
الاندلس والمغرب وفي المشرق وكان صاحبها من الاندلسيين
الذين عاصروا الدولة المرابطية كتاب التفسير لابي محمد
ابن عطية الغرناطي ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م والذي قال عنه
الضبي «ألف في التفسير كتاباً ضخماً أربى فيه على كل
متقدم» (١٤) .

ومن العلماء الاندلسيين ابن الخصال الغافقي الذي سكن
مراكش ما يقرب من ثلاثين عاماً في عهد الدولة المرابطية
واشتغل بعلم التفسير فيها والذي كان من أنبه علماء البلاط
المرابطي في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ت ٥٤٢ هـ /
١١٤٧ م (١٥) .

وقد تطورت الدراسات الخاصة بعلم التفسير على عهد
الدولة الموحدية تطوراً كبيراً قياساً الى ما كانت عليه في عهد
أسلافهم المرابطين وذلك لكثرة الشخصيات العلمية التي
اشتغلت بهذا العلم والتي ذكرتها كتب التراجم علماً بأن
أغلب الشخصيات المذكورة تم استدعاؤها من بلاد الاندلس
من قبل الحكام الموحدين لأغراض علمية (١٦) .

وقد نهج الموحدون نهجاً في دراسة علم التفسير يختلف

(١٣) ابن بشكوال : الصلة في تاريخ أئمة الاندلس ص ١١٦ .

(١٤) الضبي بغية الملتبس في تاريخ أهل الاندلس (القاهرة سنة ١٩٦٧) ص ٣٨٩ .

(١٥) المراكشي : المعجب ص ١٧٣ ، ابن الخطيب : الإحاطة ج ٢ ص ٣٨٨ .

(١٦) الغبريني : عنوان الدراية ، تحقيق : عادل نويهض (بيروت ١٩٦٩) ص ٢٠٣ .

عن المنهج الذى سار عليه المرابطون المالكيون حيث أنهم كانوا يؤولون التشابه من الآيات والأحاديث (١٧) .

اضافة الى ذلك أن أحد علماء التفسير وهو أبو القاسم السهيلي الذى كان مكرما عند الموحدين (١٨) صنف كتابا فى التفسير سماه التعريف والاعلام فيما أبهم فى القرآن من أسماء الاعلام ، وعند تنسيقه لبعض الآيات أولها تأويلا شيعيا حيث قال : فقلوله تعالى انما أنت منذر ولكل قوم هاد . ورؤى ابن الاعرابى عن طريق سعيد . . . قال لما نزلت منذر ولكل قوم هاد قال رسول الله (ص) أنا المنذر وانت يا على هاد بك يا على اهتدى المهتدون (١٩) .

ومن أشهر علماء التفسير الأندلسيين فى عهد الموحدين ، أبو الحسن على بن محمد الغرناطى الذى سكن فى الجانب الشرقى من مدينة مراكش وتوفى بها سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م وكان من العلماء الذين تحفصوا بعلم التفسير فقط الى درجة أن استأذه ابا بكر بن العربى المعافى كان يتوقع له هذه المنزلة العلمية الرفيعة بالعلم المذكور اذ أقبل عليه المراكشيون لغرض دراسة علم التفسير فكان «يفسر لهم القرآن من أوله الى آخره فنفع الله به خلقا كثيرا» (٢٠)

ومنهم أبو زيد عبد الرحمن بن الخطيب السهيلي الذى استدعاه المنصور الموحدى الى عاصمته مراكش لكى ينتفع

(١٧) ابن تومرت : أعز ما يطلب (الجزائر ١٩٠٤) ص ٢٣٢ - ٢٣٤ .

(١٨) عبد العباس ابراهيم الحمادى : الحركة الفكرية ص ٢٦٦ .

(١٩) أبو القاسم السهيلي : التعريف والاعلام فيما أبهم فى القرآن من أسماء الاعلام (القاهرة ١٩٣٨) ص ٥٧ ، ١٠١ .

(٢٠) ابن الموقت : السعادة الابدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية . (الدار البيضاء) ص ٨٤ .

سكان العاصمة بما لديه من علم وتصدر فيها للتدريس الى
أن توفي بمراكش سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م (٢١) .

وعرف عن علماء التفسير في عصر بنى مرين بأنهم كانوا
يعتمدون اعتمادا كبيرا على الحديث ، خاصة النوع النقلي
منه ، وهو الذى يعتمد على المأثور (٢٢) . وبهذا يكون علماء
التفسير في عصر بنى مرين قد نهجوا نهجا مخالفا في دراسة
التفسير عن النهج الذى سار عليه علماء التفسير في عصر
الموحدين الذين كانوا يؤولون المتشابه من الآيات
والأحاديث (٢٣) .

وطبيعى أن تنشط حركة التفسير في عصر بنى مرين
لما عرف عن سلاطين بنى مرين من الاهتمام البالغ بالقرآن
باعتباره المصدر الأول للتشريع الاسلامى (٢٤) .

لذلك برز في علم التفسير العديد من العلماء نذكر منهم
محمد بن محمد بن على المعروف بابن البقال المتوفى سنة
٧٢٥ هـ / ١٣٢٤ م (٢٥) ، ومحمد بن على العابد الانصارى
المتوفى سنة ٧٦٢ هـ / ١٣٦٢ م والذى من أهم أعماله في
هذا المجال اختصاره لتفسير الزمخشري وتجريده له من مسائل
الاعتزال (٢٦) . ومن هؤلاء المفسرين ابن البناء العددي ،
الذى كانت له عدة موضوعات في التفسير وحاشية على الكشف

(٢١) عبد العباس ابراهيم حمادى : الحركة الفكرية ص ٢٦٨ .

(٢٢) د . على عبد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلدون ص ٧٧٥ .

(٢٣) ابن تومرت : أعز ما يطلب . ص ٢٣٢ - ٢٣٤ .

(٢٤) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٠١ .

(٢٥) الكتانى سلوة الأنفاس ج ٢ ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٢٦) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٤٤ ، عبد الله كنون : النبوغ المغربى

(بيروت ١٩٦١) ص ١٩٤ .

للزمخشري (٢٧) * ومحمد بن أبي البركات السكاك المتوفى سنة ٨٠٠ هـ / ١٣٩٧ (٢٨) ، وأيضا محمد بن أبي غالب ابن أحمد السكاك المتوفى سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م (٢٩) * ولم تنحصر حركة التفسير على نشاط علماء المغرب وحدهم ، لكنها شملت هؤلاء الوافدين على دولة بنى مرين من علماء الدول الأخرى * أمثال محمد الهادي بن أبي قاسم ابن نفيس الشريف ، والذي خرج السلطان أبو سعيد عثمان المريني للقائه والترحيب به حين قدومه من العراق الى فاس (٣٠) * ومنهم أيضا الخطيب بن مرزوق الذي رحل من الأندلس وكان له نشاط ملحوظ في التفسير أثناء اقامته بالمغرب * كما شملت حركة التفسير تداول الكتب الواردة من خارج المغرب ، والتي احتل بعضها مكانا مرموقا بين الخاصة والعامة ، مثل التأليف الخاص بشرف الدين الطيبي من أهل عراق العجم ، والذي تناول فيه كتاب الزمخشري ، وتتبع فيه الفاظه وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بالادلة التي تبطلها ، وتوضح أن البلاغة إنما تكون في الآية على ما يراه أهل السنة لاعلى ما يراه المعتزلة (٣١) *

علم القراءات :

هو علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ، وموضوعه القرآن من حيث أنه كيف يقرأ (٣٢) * ويعتبر هذا العلم من أول العلوم التي اهتم بها المسلمون ، غير أنهم

(٢٧) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٤٤ .

(٢٨) الكتاني : سلوة الأنفاس ج ٢ ص ١٤٦ .

(٢٩) المصدر السابق ج ٢ ص ١٤٤ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٤٨ .

(٣٠) الكتاني : سلوة الأنفاس ج ٣ ص ١٧ .

(٣١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٥ .

(٣٢) المصدر السابق : ص ٤٠٢ .

اختلفوا فى عدد القراءات ، فبعضهم جعلها سبع قراءات وبعضهم جعلها أكثر غير أن الراجح هو سبع قراءات (٣٣) . وقد كان علم القراءات (٢٤) فى الأندلس صورة مطابقة للقراءات (٣٥) فى الشرق ولكن بحلول القرن الخامس الهجرى أصبح لهذا العلم فى الأندلس شخصيته المتميزة على يد عدد من علماء الأندلس وهذا ما يمكن أن نفهمه من كلام ابن خلدون حيث يقول : « ولم يزل القراء يتداولون هذه القراءات وروايتها ، الى أن كتبت العلوم ودونت فكتبت فيما كتب من العلوم ، وصارت صناعة مخصوصة وعلماً مفرداً ، وتناقله الناس بالشرق والأندلس ، جيلاً بعد جيل ، الى أن ملك بشرق الأندلس مجاهد من موالى العامريين ، وكان معتنيا بهذا الفن من فنون القرآن ، لما أخذه به مولاه المنصور بن أبى عامر ، واجتهد فى تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته . فكان سهمه فى ذلك وافراً ، واختص مجاهد بعد ذلك بامارة دانية والجزائر الشرقية فنفتت بها سوق القراءة لما كان هو من أئمتها ، وبما كان له من العناية بسائر العلوم وبالقراءات خصوصاً ، فظهر لعهد أبو عمرو الدانى

(٣٣) د. عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٧٨) ص ١٦٩ ، ١٧٠ . هذه الطرق فى القراءة نسبت الى من اشتهر بروايتها ، وهؤلاء القراء السبعة الذين نسبت قراءاتهم لاسمائهم هم : نافع من أهل المدينة ، وابن كثير من مكة ، وابن عامر من الشام ، وأبو عمر من البصرة ، وحزمة والكسائى من الكوفة ، وقد أضيفت ثلاث قراءات منسوبة لكل من حفص وأبى جعفر ويعقوب فصارت القراءات عشرة ، وما زاد على ذلك اعتبر شاذاً . د. عبد الواحد وافي : فقه اللغة ص ١١٨ .

(٣٤) هو علم يبحث فيه عن كيفية النطق بالفاظ القرآن ، وموضوعه القرآن من حيث أنه كيف يقرأ ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٥ .

(٣٥) هذه الطرق فى القراءة نسبت الى من اشتهر بروايتها الذين نسبت قراءاتهم لاسمائهم . وكان على رأس هؤلاء سبعة قراء وهم : نافع من أهل المدينة المنورة وابن كثير من مكة المكرمة ، وابن عامر من الشام ، وأبو عمر من البصرة ، وحزمة والكسائى من الكوفة ، وقد أضيفت ثلاث قراءات منسوبة لكل من حفص وأبى جعفر ويعقوب فصارت القراءات عشرة ، وما زاد على ذلك اعتبر شاذاً . د. عبد الواحد وافي : فقه اللغة ص ١١٨ .

وبلغ الغاية فيها ، وعول الناس عليها وعدلوا عن غيرها ، واعتمدوا من بينها كتاب التيسير له * ثم ظهر بعد ذلك فيما يليه من العصور والأجيال ، أبو القاسم بن فيرة من أهل شاطية ، فعمد الى تهذيب مادونه أبو عمرو وتلخيصه فنظم ذلك كله فى قصيدة لخص فيها أسماء القراء بحروف (أ ب ج د) ، ترتيبا أحكمه ليتيسر عليه ما قصده من الاختصار وليكون أسهل للحفظ لأجل نظمها ، فاستوعب فيها الفن استيعابا حسنا ، وعنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين * وجرى العمل على ذلك فى أمصار المغرب والأندلس « (٣٦) » .

ولقد ألف الأندلسيون فى هذا العلم كثيرا ونبغ منهم عدد كبير حتى أننا نجد أسماءهم تلمع فى كثير من مناطق العالم الاسلامى ، وتكفى الاشارة الى أن كتاب معرفة القراء الكبار ، الذى تناول أكبر طبقات القراء ضم من الأندلسيين ١٢٧ قارئاً مشهوراً (٣٧) * .

وتدين العاصمة مراكش الى رجال العلم الأندلسيين الذين بذروا فيها البذرة الأولى الخاصة بالاشتغال بعلم القراءات أبان الحكم المرابطى ، بل أنهم ظلوا يشكلون العمود الفقري للنهوض بهذا اللون من الدراسات الشرعية حتى فى العهد الموحدى ، ويظهر ذلك جليا من تتبع تراجم الشخصيات العلمية التى تصدرت لتدريس علم القراءات بمراكش فمن الذين بذلوا جهودا علمية لتدريس العلم المذكور وتطويره من الأندلسيين عندما كانت تحت المظلة المرابطية محمد ابن أغلب بن أبى الدوس الذى كان يمارس مهنة التعليم

(٣٦) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٢ ، ٤٠٣ .

(٣٧) د محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم ص ص ٢٨٦ - ٢٩٢ .

والاقرار داخل مراكش وتوفى بها سنة ٥١١ هـ /
١١١٧ م (٣٨) .

ومنهم أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن
ابن محمد بن الضقر الانصارى الخزرجى ، الذى كان مقرئاً
وموجوداً مع المامه بعلوم أخرى وقد ثولى أحكام الصلاة وامامة
مسجد على بن يوسف بن تاشفين وعاصر الدولتين المرابطيه
والموحديه حيث توفى بمراكش ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م (٣٩) .

وقد شهد علم القراءات والتجويد فى عهد الموحدين
تطوراً كبيراً لم يشهد له مثيل من قبل ويمكن أن يعزى ذلك
الى عدة أسباب منها أن أغلب اولئك الحكام كانوا من المهتمين
بدراسة هذا العلم حتى عدوا من اكابر الحفاظ
والخطاطين (٤٠) .

كما استدعى الموحدون فطاحل المقرئين فى الأندلس
مثل محمد بن عبد الله بن ميمون بن ادريس بن محمد بن
عبد الله العبدري الذى استوطن مراكش وانتصب للتدريس
فيها (٤١) وقد ذكر بن عبد الملك المراكشى أن أغلب ابناء
مدينة مراكش التى توفى بها سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م انتفعوا
بعلمه (٤٢) .

ومحمد بن عمر الشواشى الشلبى وهناك كثير من القراء

(٣٨) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب تحقيق : د. شوقي ضيف (القاهرة .
١٩٥٥) ج ٢ ص ١٨٠ .

(٣٩) ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة لكتايب الوصول والصلة ، تحقيق :
د. احسان عباس . بيروت قسم ١ ج ١ ص ٢٢٣ - ٢٢٢ .

(٤٠) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٢٢٣ ، المراكشى : المعجب ص ٢٢٧ .

(٤١) ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة ج ٦ ص ٣١٩ ، ٣٢٠ .

(٤٢) ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة ج ٦ ص ٣١٩ - ٣٢٢ .

الاندلسيين الذين سكنوا المغرب وأفادوا أبناءها بعلمهم ،
ولا يتسع المجال لذكرهم (٤٣) .

وقد اعتمدت الدراسات الخاصة بعلم القراءات فى عصر
بنى مرين على مصنفات أبى عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان
الدانى المتوفى سنة ٤٤٤ هـ ، وخاصة كتابه (التيسير) الذى
لخصه بعد ذلك أبو القاسم بن فيرة الشاطبى ونظمه فى قصيدة
شعرية اشتهرت (بالشاطبية) رتب فى تلك القصيدة أسماء
القرآن بحروف (أبجد) تسهيلا لحفظها (٤٤) .

وقد شهد علم القراءات فى عصر بنى مرين اهتماما من
العلماء المغاربة ونبغ فيه عدد كبير من أبناء المغرب مثل :
أبى عبد الله الشربسى الحرازى المتوفى سنة ٧١٨ هـ /
١٤١٥ م (٤٥) ، وأبى الحسن على بن سليمان الأنصارى
القرطبى المتوفى سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م والذى له عدد من
المؤلفات فى هذا الفن منها : التجويد ومختصره ، المنابع فى
قراءة نافع ، ترتيب الأداء ، الجمع بين الروايات فى
الاقراء ، وتبيين طبقات المد وترتيبها (٤٦) .

ومنهم أيضا محمد بن ابراهيم الصفار المراكشى ، وهو
من علماء القراءات السبع الذى كان كثيرا ما يستدعيه
السلطان أبو عنان المرينى ليقرأ عليه برواياته
السبع (٤٧) .

ومن هؤلاء أيضا ميمون الفخار المتوفى سنة ٨١٦ هـ /

(٤٣) ابن عبد الملك المراكشى : الذيل ج ٥ ص ٦٨ ، ٦٩ ، ج ٦ ص ١٣ .

(٤٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٢ ، ٤٠٣ .

(٤٥) الكتانى : سلوة الانفاس . ج ٢ ص ١١٤ .

(٤٦) المصدر السابق ج ٣ ص ١٤٩ .

(٤٧) المصدر السابق . ج ٢ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

١٤١٣ م والذي كانت له مؤلفات ، عدة فى علوم القرآن ، ورسم المصحف ، والقراءات منها : التحفة والدرة ، والمورة فى نقط المصحف العلى (٤٨) . ومن تلاميذه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الجاديرى الذى له كتاب : التافع فى أصل حروف نافع (٤٩) . ومن علماء القراءات أيضا محمد ابن على البقال المتوفى سنة ٧٨١ هـ / ١٣٧٩ (٥٠) ، وأحمد ابن محمد الزواوى الذى كان اماما فى القراءات ، وكان أحد أعضاء مجلس السلطان أبى الحسن المرينى العلمى (٥١) .

رسم المصحف :

هو فن يبحث فى أوضاع حروف القرآن الكريم فى المصحف ورسومه الخطية (٥٢) . وقد انتهى فن رسم المصحف فى المغرب الى أبى عمر الدانى ، والذي كان من أشهر مؤلفاته فى فن رسم المصحف كتابه (المقنع) ثم أفرغ أبو القاسم الشاطبى محتويات هذا الكتاب فى قصيدته المشهورة (الشاطبية) (٥٣) . وبرز فى عصر ببنى مرين أبو عبد الله الشربشى الحراز المتوفى سنة ٧١٨ هـ / ١٤١٥ م (٥٤) حيث وضع قصيدة أخرى زاد فيها على ماجاء بالمقنع ذاع صيتها فى بلاد المغرب وهى (المشهوره بالعقيلة) والتي بها هجر أهل المغرب كل ماسبقها فى رسم المصحف

(٤٨) الكتانى : سلوة الانفاس ج ٢ ص ٢ ، ٣ .

(٤٩) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥٧ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٥٩ .

(٥٠) الكتانى : سلوة الانفاس ج ٢ ص ١٤٧ .

(٥١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٧٧ .

(٥٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٣ .

(٥٣) المصدر السابق ، ص ٤٠٣ .

(٥٤) : سلوة الانفاس ج ٢ ص ١١٤ .

من فنون (٥٥) * ويعتبر الحراز هذا من أبرز علماء عصر بنى مرين فى هذا الفن ، وقد كانت له مؤلفات متعددة فى هذا المجال منها : (مورد الظمان فى رسم أحرف القرآن) (٥٦) .

ومن الذين برزوا أيضا فى هذا الفن فى عصر بنى مرين * ميمون الفخار المتوفى سنة ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م الذى كانت له مؤلفات فى هذا الفن منها : (التحفة والدرة والمورد الردى فى نقط المصحف العلى) (٥٧) .

وتجدر الاشارة الى أنه انتقل فى عصر بنى مرين الى المغرب لون من الخط الاندلسى نظرا لهجرة كثير من علماء الاندلس فى تلك الفترة الى بلاد المغرب نتيجة لظروف الاندلس الطاحنة ، ولترحيب سلاطين بنى مرين بهؤلاء العلماء واستخدامهم فى الوظائف الحكومية على امتداد دولتهم .

وفى العصر المرينى تم رسم عدد من المصاحف الشريفة النادرة ، كان أول هذه المصاحف ذلك الذى تم رسمه بأمر السلطان أبى يعقوب يوسف ، وقام باستنساخه أحمد بن الحس الكاتب لتحمله قافلة حجاج المغرب الى الأراضى المقدسة كهدية للبيت الحرام * لذلك فقد صنع لهذا المصحف غلافا بديع الصنع استكشر فيه من معالق الذهب المنظم بخرزات الدر والياقوت ، وجعلت منها حصاة فى الوسط تفوق الحصوات الأخرى مقدارا وشكلا وحسنا (٥٨) .

(٥٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٣ .

(٥٦) الكتانى : سلوة الانفاس ج ٢ ص ١١٤ .

(٥٧) المصدر السابق ج ٣ ص ١٤٩ .

(٥٨) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٢٢٦ .

كما كان السلطان أبو الحسن المرينى متقنا لفن الخط حيث قام بنفسه بكتابة نسخة من المصحف الشريف بخط يده ليبعث بها الى الحرم المكى الشريف (٥٩) . ولما انتهى من نسخها جمع الوراقين لتنسيقها وتذهيبها ، كما استخدم القراء لضبطها وتهذيبها ووضع لها وعاء من الأبنوس والعاج والصندل دقيق الصنعة ، غشى بصفائح الذهب ثم رصع بالجواهر والياقوت واتخذ له غلافا من الجلد المحكم الصنعة المرقوم بخطوط الذهب ، ومن فوقه لفائف الحرير والديباج والكتان (٦٠) .

ثم كتب السلطان أبو الحسن نسخة أخرى من المصحف الشريف بنفس الطريقة التى كتب بها نسخته الأولى التى أوقفها للحرم الملكى ليبعث بها الى الحرم المدنى بالمدينة المنورة مع رحلة الحج لعام ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ (٦١) .

ويذكر ابن خلدون أن السلطان أبا الحسن المرينى بعد بسط نفوذه على تونس شرع فى كتابه نسخة ثالثة من المصحف الشريف ليوقفها ببيت المقدس (٦٢) .

علوم القرآن :

هو علم يتكون من عدة مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وجمعه وترتيب سورته ، وبيان الوجوه التى

(٥٩) المصدر السابق : العبر ج ٧ ص ٢٦٤ ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٦٢ .

(٦٠) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٢٦٤ .

(٦١) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٦٢) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٢٦٦ .

نزل عليها وأسباب النزول ، وشرح غريبه ، ودفع الشبهات عنه ، وكل ما هو يختص به (٦٣) .

ولعل السر في أن العلماء سمووا هذا العلم بصيغة الجمع (علوم القرآن) وليس بصيغة الافراد هو رغبتهم في الإشارة بهذه التسمية الى أن كل مبحث من مباحثه جدير بأن يكون علما قائما بذاته اذا جمعت مادته على سبيل الاستيعاب والاستقصاء (٦٤) .

وترجع مباحث هذا العلم في جملتها الى مصادر ثلاثة ، كانت كلها معروفة للمسلمين الأوائل في صدر الاسلام ، وهى ترجع الى لغتهم العربية ، والى الوحي من الله تعالى ، والى أحداث وقعت على مسامعهم وأعينهم ، فالذى يرجع الى لغتهم منه مبحث غريب القرآن ، ومبحث اعجازه وجدله ، وحقيقته ، ومجازه ونحو ذلك مما يرجع الى اللغة ، وهذا كله كان يدركه المسلمون الأوائل تمام الادراك لتمسكهم من لغتهم ، وما كان مرده الى الوحي ، كالوجوه التى نزل عليها وكمعرفة مانسج من القرآن ، وبيان ماكان يحتاج الى بيان فى القرآن فكل ذلك كان يوحى به الى النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وكان النبى يبلغه لأصحابه . أما ما هو من قبيل الحوادث فيتمثل فيما كان يقع بين أظهرهم مثل أسباب النزول ، والنزول فى وقت كذا أو مكان كذا ، فان هذا أيضا كانوا يعرفونه بأنفسهم ، ويحييطون به بمجرد وقوعه . لكن الصحابة - رضى الله عنهم - لم يدونوا كل هذه المباحث لان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان قد نهاهم عن كتابة

(٦٣) عبد الوهاب عبد المجيد : البيان فى مباحث علوم القرآن ص ٣١ .

(٦٤) المرجع السابق : ص ٣١ ، ٣٢ .

أى شيء غير القرآن ، فروى مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله (ص) قال : «لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه» (٦٥) .

لهذا لم يدون الصحابة هذه الأبحاث ، ولكنهم لم ينقطعوا عن روايتها لنشرها بين المسلمين ، وظل الأمر على هذا الحال يتناقله الرواة طبقة عن طبقة دون أن يدونوا شيئاً حتى ظهر خلال القرن الثانى الهجرى عدد قليل من المؤلفات فى هذه الأبحاث ، كالذى يروى عن قتادة بن دعامة السدوس المتوفى سنة ١١٨ هـ من أنه كتب مؤلفاً فى الناسخ والمنسوخ» (٦٦) .

وقد نبغ فى هذا العلم فى عصر بنى مرين عدد من العلماء نذكر منهم ميمون الفخار المتوفى سنة ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م الذى كانت له مؤلفات عدة فى علوم القرآن ورسم المصحف والقراءات منها : (التحفة والدرة والمورد فى نقط المصحف العلى) (٦٧) ومن تلاميذه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الجاديرى (٦٨) .

علم الحديث :

هو «علم تعرف به أقوال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأفعاله من قول ، أو فعل ، أو تقرير أو صفة ، وهو مرادف للسنة ، كما أنه أصل من أصول التشريع الإسلامى ومرتبته تلى مرتبة القرآن فى الاستدلال» (٦٩) .

(٦٥) عبد الوهاب عبد المجيد غزلان : البيان ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٦٦) المرجع السابق : ص ٣٤ .

(٦٧) الكتانى : سلوة الانفاس ج ٢ ص ٣ ، ٢ .

(٦٨) المصدر السابق ص ١٥٧ .

(٦٩) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

ولما كان علم الحديث (٧٠) المصدر الثانى من مصادر التشريع الاسلامى فقد أدى ذلك الى تعدد أساتذة الحديث ومدارسه فى مختلف مراكز الثقافة فى الاندلس كما هو الحال فى كافة بلدان العالم الاسلامى (٧١) .

يقول ابن عبد البر القرطبى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م : ان أول ما نظر فيه الطالب ، وعنى به العالم ، بعد كتاب الله عز وجل ، سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهى المنبئة لمراد الله عز وجل سن مجملات كتايبه والدالة على حدوده والمفسرة له والهادية الى الصراط المستقيم (٧٢) .

لذلك فقد تعدد أساتذة الحديث ومدارسه فى مختلف مراكز الثقافة فى الاندلس منذ وقت مبكر ، واشتهر من هؤلاء عدد كبير .

أما فى المغرب لم يكن لعلم الحديث حظ يذكر قبل ظهور المرابطين (٧٣) ، ومن ثم كان تطور علم الحديث فى العصر المرابطى بطيئاً ، ومن الشخصيات الاندلسية التى هاجرت الى عاصمة المرابطين واستوطنتها واشتغلت بتدريس الحديث : عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن قاسم بن منصور اللخمي

(٧٠) الحديث هو كل ما ورد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قول أو فعل أو تقرير شئ رآه ولذلك تعددت العلوم المتشعبة عن الحديث فكان : الناسخ والمنسوخ ، وهو من أهم علوم الحديث وأصعبها ، والنظر فى الاسانيد ، ومعرفة شروط السند ، ومعرفة رواة الحديث ، ومراتب الصحابة والتابعين وتفاوتهم فى ذلك . والالفاظ ، الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع والشاذ والغريب . والخلافات بين أئمة الشأن ، والوفاق بين أئمة الشأن ، وغير ذلك من الالفاظ وكيف أخذ الرواة بعضهم عن بعض : قراءة أو كتابة أو مناولة أو اجازة ، وتفاوت رتبها . وأحوال النقلة ... الخ (ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٥) .

(٧١) د . محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم ص ٣٠٠ .

(٧٢) ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الاصحاب ص ٢ .

(٧٣) محمد عثمان المراكشى : الجامعة اليوسفية ، (الرباط ١٩٣٧) ص ١٨٤ .

الذى ولى قضاء الجماعة بمدينة مراكش وكان من رجال الحديث روى عنه وناظر عنده أبو الفضل بن عياض توفى سنة ٥١٣ هـ / ١١١٩ م (٧٤) *

ومنهم عبد الرحمن بن محمد بن الصقر الانصارى الذى استوطن عاصمة المرابطين وكان من رجال العلم والمعرفة وله عناية خاصة بعلم الحديث وروايته عارفا بطرقه وصحيحه وسقيمه فضلا عن المامه بعلوم أخرى درس عليه علم الحديث بمراكش جماعة منهم ابنه أبو العباس وتوفى بمراكش سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٨ م (٧٥) ومنهم مالك بن يحيى بن وهيب سكن مراكش وتوفى بها سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م وكان يحيط بعلوم كثيرة منها علم الحديث الذى اشتغل بتدريسه بمدينة مراكش ، كما أنه هو الذى ناظر المهدي بن تومرت بحضور على بن يوسف بن تاشفين بمسجد ابن يوسف (٧٦) *

هذا فضلا عن شخصيات علمية أندلسية أخرى سكنت المغرب فى العهد المرابطى واشتغلت بتدريس الحديث (٧٧) *
ومن العلماء الاندلسيين الذين وفدوا على العاصمة المرابطية مراكش واشتغلوا بتدريس الحديث منهم محمد بن اسماعيل بن عبد الملك الصدفى الذى توفى بمراكش سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ ، ومحمد بن أبى عمرو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن أحمد الاندلسى الذى حدث بمراكش

(٧٤) ابن الأبار : المقتضب من كتاب تحفة القادم ، تحقيق : إبراهيم الأبيارى (القاهرة ١٩٥٧) *

(٧٥) ابن القاضى : حذوة الاقتباس ج ٢ ص ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، العباس بن إبراهيم : الاعلام بمن صل بمراكش واغيات من الاعلام (الرباط ١٩٧٤) ج ٨ ص ٥٥ ، ٥٦ *

(٧٦) ابن بشكوال : الصلة ج ٢ ص ٦٢١ ، المراكش : المعجب ص ١٨٤ ، ١٨٥ ، القرى نفح الطيب ج ٣ ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، العباس بن إبراهيم ج ٨ ص ٥٤٠ *

(٧٧) ابن بشكوال : الصلة ج ٢ ص ٥٨٠ *

فنفع الله بعلمه كثيرين وتوفى بمدينة أشبيلية سنة ٥٤٣ هـ /
١١٤٨ م (٧٨) .

وفى العصر الموحدى يبدو أن اهتمام الموحدين بدراسة
علم الحديث كان نابعا من مذهبهم الدينى حيث فرضت الدولة
على المواطنين الدراسات الاجبارية للحديث وقد جعل لمن
يحفظ حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الجوائز
السنية (٧٩) .

ومن علماء الحديث الاندلسيين الذين سكنوا المغرب فى
العهد الموحدى : محمد بن ابراهيم بن الفخار الانصارى
استدعى الى العاصمة الموحدية من قبل ملوكها الموحدين وتوفى
بها سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م (٨٠) .

وقد كان من أحفظ علماء زمانه للحديث والفقه واللغات.
والآداب والتواريخ آبه فى ذلك من آيات الله» (٨١) .

ومن هؤلاء أيضا : محمد بن عبد العزيز بن خلف بن
عبد العزيز المعافرى سكن مدينة مراكش باستدعاء من المنصور
الموحدى ، عالم بعلوم كثيرة منها علم الحديث فقد كان محدثا
راوية عدلا مكثرا صحيح السماع ثقة متقدما فى النحو ،
تصدر للتدريس بجامع المنصور الموحدى لما له من معارف
صنف بعض الكتب التى اقبل عليها المراكشيون قراءة ونسخا
لأهميتها العلمية صنف كتابا فى اخيار خليل وسلفه وبيته
ومناقبه وتوفى بمدينة مراكش سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م (٨٢) .

-
- (٧٨) ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة ج ٦ ص ٣٥٦ - ٣٦١ .
(٧٩) المراكشى : المعجب ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب .
مخطوط رقم ٥٤٩ بدار الكتب المصرية ، ج ٢٢ ورقة ١٢٥ ، ١٢٦ .
(٨٠) ابن عبد الملك المراكشى : ج ٦ ص ٨٧ - ٩٠ .
(٨١) المصدر السابق : الذيل ج ٦ ص ٨٧ - ٩٠ .
(٨٢) المصدر السابق ج ٦ ص ٢٨٢ .

وعلى بن محمد بن القطان الكتامي : الذى سكن مدينة
مراكش ورأس فيها طلبية العلم وكان من أبصر الناس بصناعة
الحديث واحفظهم صنف مصنوعات عديدة بعضها فى علم
الحديث حيث استدرك على كتاب الاحكام لأبن عبد الحق بكتاب
سماه : بيان الوهم والايهام الواقعين فى كتاب الاحكام (٨٣)
وتوفى بسلمجماة سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م (٨٤) .

ومن العلماء الذين برزوا فى هذا العلم فى عصر بنى
مريـن محمد بن عبد الرحمن التميمى الذى كان يروى
الحديث بأسانيد ممتونه ، ويستظهر مطولاته (٨٥) .

ويعتبر ابن رشد المتوفى سنة ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م شيخ
المحدثين فى عصر بنى مريـن ، والذى اشتهر بأنه على
الاسناد ، صحيح النقل أصيل الضبط تام العناية بالصناعة
الحديثية ، قيما عليها بصيرا بها (٨٦) . كما كان على دراية
كبيرة بعلم الجرح والتعديل المتصل بعلم الحديث (٨٧) .

ومن أئمة الحديث فى ذلك العصر أيضا الحافظ عبد
المهيمن الحضرمى ، الذى كان حجة فى حفظه ورجاله ، كانت
له أربعينات فى الحديث ، ومجلس لتدريس هذا العلم
بتونس أيام بسط النفوذ المرينى عليها (٨٨) .

ويعتبر محمد بن عبد الرازق الجزولى من أشهر علماء

(٨٣) المقرئ : نفع الطيب ج ٣ ص ١٨٠ .

(٨٤) ابن عبد الملك المراكشى : الدليل والتكملة ج ٦ ص ٣٨١ ، ٣٨٢ .

(٨٥) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٣٩ .

(٨٦) الكتانى : سلوة الانفاس ج ٢ ص ١٩١ .

(٨٧) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٨٠ .

(٨٨) ابن مرزوق : المسند ص ١٤٤ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٧٩ .

الحديث فى عهد السلطان أبى عنان حيث كان يأخذ السلطان عنه الحديث (٨٩) .

وممن اشتهروا أيضا بهذا العلم فى عصر بنى مرين :
محمد بن سعيد بن محمد بن عثمان الاندلسى المتوفى سنة ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م الذى ألف فى علم الحديث كتابه : (تحفة الناظر ونزهة الحاضر فى غريب الحديث) ، وكتاباه (الجامع) الذى أعده فى جزءين (٩٠) .

ومن هؤلاء أيضا أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن المعروف (بالقباى) المتوفى سنة ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م والذى كان له مجلس كبير فى الحديث حضره لسان الدين بن الخطيب (٩١) .
ومن هؤلاء العلماء أيضا يحيى بن أحمد السراج المتوفى سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢ م الذى كان فقيها محدثا مكثرا فى الرواية (٩٢) .

الفقه :

و «يسمى بعلم الدراية وهو معرفة النفس مالهها وماعليها» (٩٣) . وتعنى كلمة الفقه فى اللغة : العلم بالشىء والفهم له . . . وقد جعله العرف خاصا بعلم الشريعة (٩٤) .
وقد تأثرت الاندلس فى الفترة الاولى من حياتها كما

(٨٩) الكتانى : سلوة الانفاس ج ٣ ص ٢٧٦ .

(٩٠) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

(٩١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٦٠ .

(٩٢) المصدر السابق ص ٣٣٩ .

(٩٣) التهانوى : كشف اصطلاحات الفنون ص ٤١ - ٤٤ .

(٩٤) الزرنوجى : تعليم المتعلم طريق التعليم تحقيق : د. عبد اللطيف محمد العبد .

القاهرة ١٩٧٧ م ص ٦٣ .

هو معروف بحضارة دمشق فكان من الطبيعي أن تعتنق مذهب الأوزاعي (٩٥) بحسب كونه شاميا مواليا للأمويين خاصة أن مذهب الأوزاعي كان يهتم بصفة خاصة بالتشريعات العسكرية وأحكام الحرب وهو ما يناسب وضع الاندلسيين في هذه الفترة الأولى من حياتهم القائمة على الحرب والقتال (٩٦) .

ثم مالبت الأندلس وانتشر بها المذهب المالكي (٩٧) في فترة وجيزة حتى أصبح المذهب الرسمي لدولة الأندلس (٩٨) بل وكان فقهاء الأندلس أحرص على مذهب مالك من فقهاء أى اقليم اسلامى آخر .

ولقد انجبت الأندلس فى الفقه علماء مشهورين بالفضل ، فظهر بها طائفة كبيرة من كبار الفقهاء على المذاهب الأربعة : فمن أئمة فقهاء المذهب المالكي يحيى بن يحيى الليثى ت ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م واستأذه زيار بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشببطين أول من ادخل المذهب المالكي الى الأندلس (٩٩) وتسولى يحيى بن يحيى الليثى فتيا الأندلس برأى مالك بعد عيسى بن دينار وذكروا أنه لم يعط أحد

(٩٥) الأوزاعي هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ، ولد عام ٨٨ هـ / ٧٠٧ م وقضى معظم حياته فى الشام وتوفى فى عام ١٥٧ هـ / ٧٧٧ م ودفن فى بيروت .

(د) محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم ص ٧٤) .

(٩٦) د . أحمد إبراهيم الشعراوي : دراسات فى تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى . الجزء الثانى سنة ١٩٧٩ ص ١١٣ .

(٩٧) تأسس المذهب المالكي فى المدينة المنورة على يد مالك بن انس رضى الله تعالى عنه ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م . الذى ألف كتابه المعروف باسم (الموطأ) وهذا الكتاب يضعنا أمام طور من الأطوار الهامة فى تاريخ المذاهب ، الا وهو طور استقلال الفقه عن الحديث والاهتمام بالرأى وفتح باب الاجتهاد فى الدراسات الفقهية (د . أحمد إبراهيم الشعراوي : ص ١١٦) .

(٩٨) المرجع السابق ، ص ١١٥ .

(٩٩) المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٥٠ .

من أهل العلم بالآندلس منذ دخلها الاسلام من الخطوة وعظم
القدر ما أعطاه يحيى بن يحيى * (١٠٠)

وبرز من فقهاء المالكية بقرطبة زمن المرابطين أبو الوليد
محمد بن أحمد بن رشد ت ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م جد الفيلسوف
ابن رشد ، وكان عارفا بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه
بصيرا بأرائهم (١٠١)

ومن بين الفقهاء المالكيين الآندلسيين الذين ترددوا على
المغرب فى العهد المرابطى وممن مارسوا فيها نشاطا علميا
ابن رشد (المجد) الذى كان يحظى باحترام كبير لدن حكام
مراكش ، وقد صنف فى الفقه عدة كتب (١٠٢) يبدو أنها
كانت من بين الكتب المعتمدة فى عهد المرابطين من تلك الكتب
والتي مازالت مخطوطة فى الخزانة العامة بالرباط (الاجوبة
لابن رشد) ويتضمن كتابا عن الجهاد ، وكتابا عن الصحابة ،
وكتابا عن الحج ، وكتابا عن مسائل النكاح وكتايا عن
السلم *

وكتاب (المقدمة) يتضمن فصلا فى شروط التكليف ،
وفصلا فى تحقيق حدود الأوقات ، وفصلا فى الصلاة فى سبب
شرع الضحايا وكتاب (البيان والتحصيل والشرح والتوحيد
والتعليل) ويتكون الكتاب من سبعة مجلدات كبيرة تناولت
الجهاد والنكاح والطلاق والوضوء والصلاة والوكالات وكرام
الدور والأراضى والوديعة والقراض والبيوع * الخ (١٠٣)
وقد ذكر أن اشتغال بن رشد فى هذا الكتاب كان سببا فى

(١٠٠) ابن الغزى : تاريخ علماء الاندلس قسم ٢ ص ١٨٠ ترجمة رقم ١٥٥٦ .

(١٠١) ابن بشكوال ، الصلة ترجمة رقم ١١٥٤ .

(١٠٢) ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة ج ٦ ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

(١٠٣) عبد العباس ابراهيم حمادى : الحركة الفكرية ص ٢٩٠ .

أقالته من قضاء قرطبة بأمر حكومة علي بن يوسف
ابن تاشفين • (١٠٤)

ولما كانت الأصول المعتبرة عند الموحدين في الفقه ،
هي القرآن والسنة والاجماع (١٠٥) أما القياس فلا
يأخذون الا بالقياس الشرعي (١٠٦) لذلك فقد ازدهرت على
عهدهم دراسة أصول الفقه وأصول الدين في المغرب الى
درجة أن بعض الأندلسيين كانوا يرحلون الى المغرب لدراسة
هذين العلمين (١٠٧) •

وفي عصر بني مرين استعاد المذهب المالكي مكانته التي
كان عليها قبل عصر الموحدين الذين صادورا كتب الفقه
المالكي وأحرقوها (١٠٨)

وقد بلغ من هيمنة المذهب المالكي في عصر بني مرين أن
أحد علمائه وهو عبد الرحمن بن عفان الجزولي كان يحضر
مجلسه العلمي أكثر من ألف فقيه مالكي معظمهم يستظهر
المدونة (١٠٩) •

وطبيعي أن تتقدم علوم الفقه في عصر بني مرين تقدما
لموسا يدل على ذلك كثرة الفقهاء الذين نبغوا في هذا
المجال ، وأيضا كثرة المؤلفات التي وضعت في علوم
الفقه (١١٠) •

ومن أشهر علماء الفقه في عصر بني مرين • محمد

(١٠٤) ابن القاضي : حذوة الاقتباس ، قسم ٢ ص ٤٦٠ •

(١٠٥) ابن تومرت : أعز ما يطلب ص ١٨ ، ٢٨٠ •

(١٠٦) المصدر السابق : ص ١٧٣ ، ١٧٤ •

(١٠٧) المنوني : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين (الرباط ١٩٧٧ ص ٥٨) •

(١٠٨) ابن مرزوق ، المسند ص ٢٠٥ •

(١٠٩) الفرديل : الفرق الإسلامية ص ٣٢٣ •

(١١٠) عبد الله كنون النبوغ المغربي ج ١ ص ١٨٩ ، ١٩٠ •

ابن محمد بن أحمد المقرئ المعروف (بالقرئ الكبير) المتوفى سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م (١١١) ، وأحمد بن قاسم بن عبد الرحمن الجزامي المعروف (بالقباب) ولقد كان نبوغ القباب في علوم الفقه مشارا لتأليف بعض الكتب حيث ألف العقباني : لب اللباب في مناقشات القباب « (١١٢) •

ومما يلفت النظر ان كبار علماء الفقه في عصر بنى مرين كانوا يعيبون على بعض علماء الفقه حرصهم على وضع المختصرات في هذا المجال ، وقد عبر عن ذلك القباب حين التقى بابن عرفة في تونس وعرض ابن عرفة عليه مختصره الفقهي (١١٣) ، فقال له القباب : « تأليفك هذا لا نفع به للمبتدئ لصعوبته ، ولا يحتاج اليه الشهير (١١٤) • وكذلك اعترض البرتاسني ، وهو الفقيه الكبير على ابن شاس حين استشاره في وضع مختصره الذي سماه (الجواهر) (١١٥) •

علم الكلام :

هو « علم يتضمن الاستدال على العقائد الايمانية بالادلة العقلية ، والرد على من خالف طريقة الصالح ، ومذهب أهل السنة في تلك العقائد » (١١٦) • ويسمى بأصول الدين • وبالفقه الأكبر • • • وبعلم النظر والاستدلال • • • وبعلم

(١١١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، الكتاني : سلوة الانفاس ج ٣ ص ٢٧١ ، ٢٧٢ •

(١١٢) ابن القاضى جذوة الاقتباس ص ٦٠ •

(١١٣) عبد الله كنون : النبوغ المغربي ج ١ ص ١٩٢ ، ١٩٣ •

(١١٤) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ج ٦٠ •

(١١٥) المصدر السابق ص ١٩٢ ، ١٩٣ •

(١١٦) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٢٣ • ت

التوحيد والصفات (١١٧) *

وقد عرف المغرب هذا العلم فى عهد الموحدين على يد قلة من الأندلسيين (١١٨) *

ويبدو أن الدارسين لهذا العلم فى عصر بنى مرين كانوا يعتمدون على كتاب الأمام فخر الدين الرازى الذى وضعه فى علم الكلام وسماه (محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين) (١١٩) ويذكر لسان الدين بن الخطيب فى كتابه الاحاطة فى أخبار غرناطة أن ابن خلدون قد لخص (محصل) الأمام فخر الدين الرازى فى كتاب سماه : (لباب المحصل فى أصول الدين) * وإذا كان هذا الكتاب يدل دلالة واضحة على مبلغ تمكن بن خلدون من مسائل هذا العلم واحاطته بمختلف فروعه ، الا أن ذلك لا يكفى للدلالة على مكانة هذا العلم فى عصر بنى مرين لعدم عثور الباحث على أسماء أخرى للمهتمين به ، العلم *

علوم اللسان العربى :

علوم اللسان العربى : « أركانه أربعة » : وهى اللغة والنحو البيان والأدب ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة ، اذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهى بلغة العرب ، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب ، وشرح

(١١٧) التهانوى : كشف اصطلاحات الفنون ص ٣٠ ، الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص ٢٨ ، ٢٩ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ص ٣٥٠ - ٣٥٣ *

(١١٨) محمد المنونى : نظم الدولة المرينية * مقال منشور فى مجلة البحث العلمى بالرباط * السنة الأولى العدد الثانى مايو / أغسطس ١٩٦٤ ص ٥٨ *

(١١٩) د * على عبد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلدون ص ٢٧٧ *

مشكلاتها من لغاتهم ، فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا
اللسان لمن أراد علم الشريعة ، وتتفاوت في التأكيد بتفاوت
مراتبها في التوفية بمقصود الكلام حسبما يتبين في الكلام
عليها فنا فنا . والذي يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو ،
اذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول
والمبتدأ من الخبر ، ولولاه لجهل أصل الافادة . وكان من حق
علم اللغة التقدم ، لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها
لم تتغير بخلاف الاعراب الدال على الاسناد والمسند والمسند
اليه فانه تغير بالجملة ولم يبق له أثر . فلذلك كان علم
النحو أهم من اللغة ، اذ في جهله الاخلال بالتفاهم جملة ،
وليست كذلك اللغة . . « (١٢٠) .

وقد بدأ اهتمام علماء الأندلس بعلوم اللسان
العربي (١٢١) مبكرا حيث قاموا بالرحلة الى الشرق للدراسة
واحضار الكتب الرئيسية (١٢٢) حتى أنه حينما وصل
أبو علي القالي الى الأندلس كان مستوى أهلها اللغوي طيبا
ووجد بها من يستحق تقديره واحترامه مثل محمد بن
القوطية (١٢٣) .

ولقد كان لأبي علي القالي ٢٨٨ - ٣٥٦ هـ / ٩٠١ -
٩٦٧ م دور كبير في رفع مستوى الأندلس من الناحية اللغوية

(١٢٠) ابن خلدون : المقدمة ص ٥١٤ .

(١٢١) علوم اللسان العربي هي علوم تساعد على تفهم اللغة العربية تفهما جيدا ،
والحديث بها بطريقة صحيحة ، واجادة التعبير بها نثرا أو شعرا . وأركان هذه العلوم
اربعة : اللغة والنحو والبيان والادب (د محمد عبد المجيد عيسى : تاريخ التعليم ص
٣٠٩) .

(١٢٢) المرجع السابق ص ٣١١ .

(١٢٣) المقرئ : نفح الطيب ج ٤ ص ٧٣ .

الى أقصى حد ممكن ، فقام بتدريس اللغة العربية وآدابها ،
وأملى كتابه المشهور « الامالى » (١٢٤) .

ويعتبر أبو بكر الزبيدي قمة تطور هذه العلوم فى
الأندلس ، ومن بعده بن سيده المتوفى سنة ٣٨٣ /
٩٩٣ م (١٢٥) .

أما فى المغرب فان اللغة العربية لم يتسع انتشارها
الا بعد ظهور المرابطين على مسرح الأحداث وتوحيد المغرب
والأندلس فى كيان سياسى واحد (١٢٦) ، فمن المعروف أن
يوسف بن تاشفين مؤسس الدولة المرابطية كان يجهل اللغة
العربية ابان حكمه (١٢٧) ، وبالرغم من ذلك فانه يتخذ من
اللغة العربية لغة رسمية فى الدواوين التى انشأها
بالمغرب (١٢٨) .

ويذكر بعض الباحثين ان المرابطين كانت لهم عناية
خاصة بدراسة اللغة العربية وعلومها (١٢٩) .

اما فى العهد الموحدى فقد نضجت فيه دراسة علوم
اللسان العربى مع ازدياد هجرة الكثير من علماء الأندلس
الى المغرب (١٣٠) .

(١٢٤) د . محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم ص ٣١١ .

(١٢٥) الحميدى : جذوة المقتبس فى ذكر ولاية الاندلس ، تحقيق . محمد بن تاويت
القاهرة ١٣٧١ هـ / ١٩٥٣ م) ص ٣٨١ .

(١٢٦) عبد العباس ابراهيم حمادى : الحركة الفكرية ص ٣٠٨ .

(١٢٧) Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne (Leyden 1932),
p. 872.

(١٢٨) عبد العباس ابراهيم حمادى : الحركة الفكرية ص ٣٠٨ .

(١٢٩) محمد عثمان المراكشى : الجامعة اليوسفية ص ٢٠٥ .

(١٣٠) عبد العباس ابراهيم حمادى : الحركة الفكرية ص ٣٠٨ .

النحو :

كلمة النحو من حيث المعنى اللغوي ، فهو القصد والطريق (١٣١) .

وردت في كتب التراجم والطبقات اشارات تشير الى وجود نشاط للدراسة النحوية بالمغرب على العهد المرابطي غير أننا نجهل طبيعة ذلك النشاط والسبب في ذلك يعود الى أن الجهود التي بذلت في هذا المضمار من الدراسات كانت جهودا فردية لم ترق الى مستوى الدراسات المتخصصة المستقلة في المعاهد العلمية المرابطة ، ومن كتب النحو التي كانت تدرس في المؤسسات العلمية بمراكش كتاب سيبويه والايضاح لابن علي الفارسي (١٣٢) .

ويبدو أن الدراسات اللغوية المتخصصة المستقلة لم تظهر بالمغرب الا في العهد الموحدى لان العهد المذكور شهد ورود عدد كبير من العلماء النحويين المتخصصين على مراكش استقروا بها وتصدروا لتدريس النحو (١٣٣) .

ومن أوائل العلماء الاندلسيين الذين استوطنوا عاصمة الموحدين وأسهموا في اقامة المدرسة النحوية فيها محمد بن عبد الله بن ميمون بن ادريس العبدري الذي أسهم في الأنشطة العلمية المختلفة في مراكش فقد كان من المبرزين بالدراسات النحوية تصدر لتدريسها في مراكش على العهد الموحدى (١٣٤) ومن مصنفاته مشاهد الأفكار في مأخذ

(١٣١) ابن منظور : لسان العرب ص ١٨٠ .

(١٣٢) محمد بن عثمان المراكشي ، الجامعة اليوسفية ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر . (القاهرة ١٩٥٨) ص ٩٤ .

(١٣٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ج ٦ ص ٣١٩ - ٣٢٢ .

(١٣٤) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ج ٦ ص ٢٢٠ .

النظار (١٣٥) وشرحاه الكبير والصغير على جمل الزجاج
وشرح أبيات الايضاح العضائى ومقامات الحريري ، وشرح
معشراته الغزلية ومكفرتها النزهدية (١٣٦) توفى بمراكش
سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م (١١٣٧) .

ومن الاندلسيين النحويين الذين كان لهم أثر كبير على
الدراسات النحوية بالمغرب فى العهد الموحدى أحمد بن
عبد الرحمن بن مضاء اللخمي الذى التحق بخدمة الموحدين
منذ سنة ٥٤٠ هـ (١٣٨) وعاصر عبد المؤمن وابنه يوسف
وحفيده المنصور وتولى قضاء الجماعة بمدينة مراكش (١٣٩)
وصنف كتابا فى النحو سماه : المشرح ضمنه الآراء النحوية
التي كان يعتقدها والتي خالف فيها نحاة عصره (١٤٠) كما
صنف كتابا آخر فى النحو سماه تنزيه القرآن عن ما لا يليق
بالبیان (١٤١) وقد احدث هذا الكتاب ضجة بين النحويين
الذين عملوا بالعاصمة الموحدية فتصدوا له وردوا عليه وممن
رد عليه على بن محمد بن خروف حيث دس صنف كتابا سماه تنزيه
أئمة النحو عن مانسب اليهم من الخطأ ، السهو (١٤٢) كما
صنف ابن مضاء اللخمي كتابا ثالثا سماه (الرد على النحاه)
وفى كتابه هذا يعتبر صاحب نظرية جدية حمل فيها لواء

(١٣٥) ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة ج ٦ ص ٣١٩ .

(١٣٦) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٣٧) المصدر السابق ج ٦ ص ٣٢٢ ، عبد العباس ابراهيم حمادى : الحركة الفكرية

ص ٣١٦

(١٣٨) ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة ج ١ ص ٢١٨ .

(١٣٩) المصدر السابق ج ١ ص ٢٢١ .

(١٤٠) المصدر السابق ج ١ ص ٢١٧ .

(١٤١) المصدر السابق ج ١ ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

(١٤٢) نفس المصدر والصفحات .

التجديد فى النحو العربى (١٤٣) فقد ذكر فى مقدمة الكتاب : قصدى فى هذا الكتاب ، أن أحذف من النحو ما يستغنى النحو عنه وانبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه (١٤٤) فمن هذا يظهر أن ابن مضاع ، صاحب دعوة جديدة فى علم النحو ما زالت دعوته تشغل بال النحويين حتى عصرنا هذا (١٤٥) توفى فى أشبيلية سنة ٥٩٢ هـ / ١١٩٥ م ومن علماء النحو الأندلسيين الذين انتفعت مدينته مراكش بعلمهم فى العهد الموحدى على بن محمد بن خروف الحضرمى النحوى الذى كان اماما فى صناعة العربية انقطع كـ تدريسيها وصرف جل اهتمامه الى كتاب سيبويه الذى تناسله بالشرح فى كتاب : تنقيح الالباب فى شرح غوامض الكتاب (١٤٧) .

ويقع فى أربعة مجلدات وقد كافاه عليه محمد الناصر بن يعقوب المنصور الموحدى بأربعة آلاف درهم موحدية (١٤٨) .

وفى أوائل عهد بنى مرين بالمغرب يبرز اسم محمد بن موسى السلوى المتوفى سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ الذى تفوق فى تدريسه لهذا العلم على كتاب سيبويه وذاع صيته بمدينة فاس (١٤٩) .

-
- (١٤٣) أحمد أمين : ظهر الاسلام (القاهرة ١٩٦٦) ج ٣ ص ٦٥ ، ٩٧ . فوزى مسعد عيسى ، الشعر الاندلسى فى عصر الموحدين ص ٨٧ .
 (١٤٤) ابن مضاع اللخمي : الرد على النحاة تحقيق : د. محمد إبراهيم البنا (القاهرة ١٩٧٩) ص ٦٩ .
 (١٤٥) نفس المصدر مقدمة الكتاب ص ٥ - ١١ .
 (١٤٦) ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة ص ٢١٢ - ٢٢٣ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ق ١ ص ١٤٢ ، العباس بن ابراهيم : الاعلام ج ٢ ص ٩٢ - ٩٢١ .
 (١٤٧) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ق ٢ ص ٤٨٢ .
 (١٤٨) ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة ج ٥ ص ٣٢١ .
 (١٤٩) السيوطى : بنية الوعاة فى طبقات اللغويين النحاة . ت. محمد أبو الفضل ابراهيم ج ١ ص ٢٥٣ .

ويتصدر ابن أجروم قائمة أشهر علماء النحو فى العصر
المرينى ، وهو صاحب ، المقدمة المشهورة باسم (الاجرومية)
وقد وصفه الذين تولوا شرح مقدمته هذه كالراعى والمسكودى
وغيرهما بالامامية فى علم النحو (١٥٠) .

وكما استفاد أهل المغرب من ابن أجروم استفاد منه
آخرون من أهل البلاد الاسلامية الأخرى كالسيوطى حيث
ينص فى كتابه (بغية الوعاة) على ذلك صراحة فيقول :
«وهو أنا استفدنا من مقدمته (يعنى مقدمة ابن أجروم) أنه
كان على مذهب الكوفيين فى النحو لانه عبر بالخفض مرة وهو
عبارتهم وقال : الأمر مجزوم وهو ظاهر فى أنه معرب وهو
رأيهم» (١٥١) .

كما وصل الى المغرب فى العهد المرينى ديوان من مصر
منسوب الى جده سأل الدين بن هشام ، استوفى فيه أحكام
الاعراب مجملة ومفصلة وتكلم على الحروف والمفردات والجمل ،
وحذف ما فى الصناعة من المتكرر فى أكثر أبوابها أطلق عليه
(المغنى) فى الاعراب فوقف منه أهل المغرب على علم
جم (١٥٢) .

ومن علماء المغرب الذين تألقوا فى عصر بنى مرين فى
علم النحو محمد بن على بن حياضى الفرناطى المحقق والمتوفى
سنة ٧٨١ هـ / ١٣٧٩ م (١٥٣) ، ومحمد بن على البقال
المتوفى سنة ٧٨١ هـ / ١٣٧٩ م الذى كان له تحقيق فى علم

(١٥٠) السيوطى : بغية الوعاة ج ١ ص ٢٣٨ .

(١٥١) المصدر السابق الصفحة ذاتها .

(١٥٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٥١٦ .

(١٥٣) الكتانى : سلوة الانفاس ٣ ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

النحو (١٥٤) . ومن هؤلاء عبد الرحمن بن صالح ابن علي المسكودي المتوفى سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م وهو أحد النحاة الذين ذاع صيتهم بمدينة فاس وله شرح على ألفية ابن مالك وشرح آخر على مقدمة ابن أجروم ، كما أن له نظما في التصريف (١٥٥) . والجاديري صاحب كتاب (المذكر والمؤنث) والمتوفى سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م (١٥٦) .

الأدب :

هو علم لا موضوع له ينظر في اثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود منه ثمرته وهي الاجادة فى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم (١٥٧) وقد شهدت عاصمة المرابطين بداية نهوض وتفتح فى العلوم الأدبية لاسيما النثر الذى لم تعرفه من قبل مدن القطر المغربى وذلك بفضل تحويل نخبة من فرسان البلاغة والفصاحة الاندلسيين الى عاصمة المرابطين الذين كانوا قبل ذلك يعملون بخدمة ملوك الطوائف الذين نحاهم يوسف بن تاشفين عن مراكز السلطة والنفوذ فانقطع اليه بعد ذلك من بلاد الاندلس من أهل كل علم فحوله واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لا يتفق اجتماعه فى عصر من الاعصار (١٥٨) وذلك لان المرابطين بعد توسع سلطانهم وجدوا أنفسهم أمام متطلبات جديدة اقتضتها حاجة دواوين ودوائر دولتهم التى كانت تفتقر الى الخبرة والتجربة فى الشؤون السياسية والعسكرية والادارية

(١٥٤) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(١٥٥) المصدر السابق ص ٩ .

(١٥٦) الكتانى : سلوة الانفاس ج ٢ ص ١٥٧ .

(١٥٧) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٢١ .

(١٥٨) المراكشى : المعجب ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

والكتابية فعمدوا الى توفيرها من حواضر بلاد الاندلس
فاستدعوا مجموعة من الأدباء الكتاب الذين سهروا على
تنظيم شئون دولتهم (١٥٩) * ومن اشهر ادباء الاندلس
وكتابتها الذين خدموا فى بلاط مراكش المرابطى هم
عبد الرحمن بن اسباط الذى كان من أوائل الاندلسيين
الذين عملوا فى البلاط المرابطى وذلك قبل عبور يوسف
بن تاشفين الى بلاد الاندلس وقد توفى فى مدينة سبتة سنة
٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م (١٦٠) *

وابن القصيرة ، محمد بن سليمان : الكلاعى الاشبيلي
يكنى ابا بكر وهو الذى ذكر عنه أنه كان أحد رجال الفصاحة
والحائز على قصب السبق فى البلاغة كان على طريقة قدماء
الكتاب من ايثار جزل الألفاظ وصحيح المعانى (١٦١) وقد
استدعاه للكتابة بالعاصمة المرابطية يوسف بن تاشفين بعد
وفاة عبد الرحمن بن اسباط وبقي يشغل هذا المنصب حتى
فى عهد على بن يوسف بن تاشفين الى أن توفى بمراكش سنة
٥٠٨ هـ / ١١١٤ م (١٦٢) ويبدو أن الكاتب ابن القصيرة
كان من أبرز كتّاب عصره لاتفاق كتب التراجم على أنه رأس
أهل البلاغة فى وقته اضافة الى العامة بعلوم كثيرة
أخرى (١٦٣) *

-
- (١٥٩) عبد العباس ابراهيم حمادى : الحركة الفكرية ص ٣٢٤ .
(١٦٠) د. محمود على مكى : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين مقال بمجلة
معهد الدراسات الإسلامية بمديرية . المجلد السابق والثامن ١٩٥٩ / ١٩٦٠ ، ص ١١٥ .
(١٦١) المراكشى : المعجب ص ١٦٤ .
(١٦٢) الفتح بن خاقان : قلائد العقبان ص ١٠٧ - ١١٠ . الصلة ٥٦٩/٢ . العباس
ابن ابراهيم : الاعلام ج ٤ ص ٤٩ .
(١٦٣) ابن بسام : الذخيرة لى محاسن أهل الجزيرة تحقيق د. احسان عباس
(بيروت ١٩٧٨) ق ٢ ج ١ / ٢٣٩ - ٢٨٤ .
(١٦٤) الفتح بن خاقان قلائد العقبان ج ١ ص ١١٣ - ١١٩ ، ابن بسام الذخيرة
ق ٢ ج ١ ص ٢٨٥ - ٣٢٢ .

وهناك طائفة كبيرة من الكتاب الفحول المجيدين ممن جمعوا بين النظم والنثر وعملوا فى البلاط المراتبى كابن المجد الفهرى المعروف بالأحدب (١٦٤) . الذى استدعاه على ابن يوسف بن تاشفين الى مدينة مراكش وألحقه بديوان الكتابة الى أن توفى سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م (١٦٥) وابن عبدون وهو أبو محمد عبد المجيد بن عبدون من بين الكتاب الأفاض الذين خدموا الدولة المراتبية والذى تربى فى بلاط بنى الألفطس (١٦٦) .

وابن أبى الخصال محمد بن مسعود بن طيب بن فرج الذى وصفه الفتح ابن خاقان بأنه النباهة (١٦٧) .

وقد تخرج على يد هؤلاء الكتاب الاندلسيين نخبة من الكتاب من أبناء المغرب ممن تصدوا لهذا الفن وبلغوا فيه شأوا بعيدا وخدموا فى بلاط الدولتين المراتبية والموحديه كأحمد بن أبى جعفر بن محمد بن عطيه الفضاعى واخيه أبى عقيل بن أبى جعفر بن عطيه القضاعى (١٦٨) .

أما حركة النشر فى العهد الموحدى فقد كانت امتدادا لحركة النشر فى العهد المراتبى مع ميلها الى شىء من التكلف الذى يكمن فى الاسهاب وذكر الألقاب السلطانية لا سيما فى الرسائل الديوانية (١٦٩) مع الاحتفاظ بروعة الأسلوب

(١٦٥) ابن بشكوال الصلة ترجمة رقم ١٢٦٧ ص ٥٧٤ .

(١٦٦) الفتح بن خاقان قلائد العقبان ص ١٥١ - ١٦٠ ، ابن بسام الذخيرة و ٢ ج ٢ ص ٦٦٨ - ٧٢٧ المراكشى : المعجب ص ٧٤ ، ٧٥ .

(١٦٧) الفتح بن خاقان : قلائد العقبان ص ١٨١ - ١٨٨ ، ابن الأبار : المعجم ١٤٩ - ١٥٤ ترجمة رقم ١٢٥ .

(١٦٨) لسان الدين بن الخطيب : الاحاطة ج ١ ص ٢٦٣ - ٢٧١ .

(١٦٩) د. محمود على مكى : وثائق تاريخية جديدة ص ١٢٠ ، ١٢١ .

والمعنى وقد واصلت الحركة المذكورة تقدمها وازدهارها تبعا
لازدهار الحركة الفكرية والعملية .

ومن الأدباء والكتاب الأندلسيين الذين استكتبتهم الدولة
الموحديه أيام عبد المؤمن بن على وابنه يوسف ، عبد الملك
بن عياش بن فرج بن عبد الملك بن هارون الأزدى القرطبى
كان مع تقدمه فى الآداب وبراعته فى الكتابة شاعرا ومن
أبرع الناس حظا وأحسنهم وراقة نال عند الموحدين منزلة
عالية وتوفى سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م (١٧٠) اما اسلوبه
فى تحرير الرسائل فلا يختلف عن اسلوب سلفه الكاتب
ابن عطية وقد كتب للموحدين كثير من الآداب الأندلسيين
الذين يطول المقام بذكرهم (١٧١) .

وقد شهد عصر بنى مرين حركة أدبية واسعة النشاط ،
ساعد على ازدهارها البيت المرينى الحاكم حيث شجع سلاطين
بنى مرين وأمراءهم الأدباء والشعراء فى دولتهم وأجزلوا
لهم العطاء ، كما احتل الأدباء والشعراء مكانة مرموقة فى
بلاط بنى مرين ، وتولوا الوظائف الكبرى ، فهناك مثلا بيت
بنى أبى مدين العثمانى الذى انحصرت فيه كتابة الانشاء
وخطة العلامة مدة طويلة منذ أيام السلطان أبو يوسف
يعقوب المرينى وأبنائه من بعده (١٧٢) . وهناك أيضا
الكاتب أبو محمد عبد المهيمن الحضرمى ، الذى ارتقت صناعة
الانشاء والترسيل على يديه ، ونذكر أيضا الكاتب الملقى
أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجارى الخزرجى
الذى شغل منصب الكتابة وائتمن على خطة العلامة ، وكانت

(١٧٠) ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة ق ١ ج ٥ ص ٢٦ - ٣٠ .

(١٧١) المراكشى : المعجب ص ٢٤٤ ، ٢٦٣ ، ٣١١ ، ٣١٢ .

(١٧٢) ابن الأحمر : روضة النسرین فى دولة بنى مرین ص ١٨ - ٢٩ .

له مراسلات عديدة مع صديقه الوزير الغرناطى لسان الدين
ابن الخطيب ، كما توجد له نسخة خطية بالخزانة العامة
بالرباط لكتابه (الشهب اللامعه فى السياسة النافعة) وهو
كتاب فى السياسة ونظم الحكم (١٧٣) *

وهناك الكاتب الأديب أبو عبد الله بن جزى الذى كان
من أهم أعماله الأدبية التى أثارت إعجاب معاصريه من أهل
المشرق والمغرب ، صياغته (تحفة النظر فى غرائب الأمصار
وعجائب الاسفار) الذى وضع مستودته صديقه
ابن بطوطة (١٧٤) *

كما عرف عصر بنى مرين من فنون الكتابة النثرية أيضا
ما يعرف بالمنظرات الأدبية (١٧٥) *

واذا كانت حركة النثر عامة تميل الى شىء من التكلف
الذى يكمن فى الاسهاب وذكر الألقاب السلطانية ، لاسيما
فى الرسائل الديوانية الا أن النثر فى عصر بنى مرين كان
يمتاز بروعة الأسلوب والمعنى *

الشعر :

احتضنت مدينة مراكش على عهد المرابطين والموحدين
كثيرا من الشعراء الذين تزايد عددهم فى العهد الموحدى
حتى غصت بهم عاصمة الموحدين *

(١٧٣) د • أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٢١٦ •

• ٢١٧

(٧٤) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١٦٦ ، د • أحمد مختار العبادى : دراسات

فى تاريخ المغرب ص ٢١٨ •

(١٧٥) المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ٥٥ - ٧١ •

وقد شغل الأندلسيين الشعراء ببلاط المرابطين مراكز حساسة منذ عهد يوسف بن تاشفين أمثال : بن القصيرة (١٧٦) وابن الجعد (١٧٧) وابن عبدون (١٧٨) وابن القبطرنة (١٧٩) وابن أبي الحصال (١٨٠) وغيرهم ومن الأمراء المرابطين الذين شجعوا الشعر والشعراء الأمير إبراهيم بن يوسف ابن تاشفين مما جعل الفتح بن خاقان أن يصنف كتابه المرسوم بـ (قلائد العقبان) (١٨١) .

ومن الشعراء الأندلسيين البارزين فى البلاط الموحدى أبو بكر بن عبد الجليل عبد الرحمن مجبر الأندلسى المرسى ، والذي من شعره يصف خيل المنصور الموحدى : (١٨٢)

له حلبة الخيل العتاق كأنها

نشاوى تهاوت تطلب العزف والقصفا

عرائس اغتتها الحجول عن الحلى

فلم تبغ خلخالاً ولا التمسست وقفاً

ومن أشهر الشعراء من أبناء المغرب والذين عملوا فى البلاط الموحدى أبو العباس أحمد الجراوى (١٨٣) أديب

(١٧٦) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(١٧٧) المصدر السابق ص ١١٣ - ١١٩ ، ابن بسام : الذخيرة ق ١٢/٢٨٥ - ٣٢٢ .

(١٧٨) ابن خاقان : ص ١٥١ - ١٥٤ ، ابن بسام ق ٢ ج ٢ ص ٦٦٨ - ٧٢٧ ، المقرئ ج نفع الطيب ج ٣ ص ٢٩٣ - ٤٥٤ .

(١٧٩) ابن خاقان قلائد العقيان ص ١٥٤ - ١٦١ ، ابن بسام : الذخيرة ق ٢ ج ٢ ص ٧٥٣ - ٧٧٣ .

(١٨٠) ابن خاقان قلائد العقيان ص ١٨٢ - ١٨٨ ، ابن بسام : الذخيرة ق ٢ ج ٢ ص ٧٨٤ - ٨٠٩ .

(١٨١) ابن خلقان ص ٣ .

(١٨٢) المقرئ : نفع الطيب ج ٣ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

(١٨٣) عبد العباس إبراهيم حمادى : الحركة الفكرية ص ٣٣٩ .

المغرب على الاطلاق فى زمانه الذى ابتداء دراسته فى مدينة
مراكش وأتمها فى الأندلس (١٨٥) *

وقد واصلت حركة الشعر تقدمها وازدهارها فى عصر
بنى مرين فاحتشد فى ذلك العصر من أبناء المغرب عدد كبير
من الشعراء *

الموشحات والأزجال :

كان من أهم مظاهر انتشار ازدواجية اللغة بين
الاندلسيين أى اللغتين العربية والرومانسية (١٨٦)
Romanco ابتكار فن شعبي اندلسي جديد هو فن الموشحات
والأزجال ، وهو طراز شعري مختلط ، تمتزج فيه مؤثرات
شرقية وغربية * ويقال أن مبتدع فن الموشحة ، شاعر ضير
من بلدة قبرة Cabra على بعد ثلاثين ميلا الى الجنوب الشرقى
من قرطبة ، واسمه مقدم بن معافى القبرى ، وكان من
شعراء الأمير الأموى عبد الله بن محمد فى أواخر القرن
الثالث الهجرى (٩م) (١٨٧) *

ويعتبر هذا الفن الجديد ثورة فى الشعر العربى ،
وحركة من حركات التجديد التى حررت من كثير من قواعد
العروض الصارمة اذ يلاحظ فى الموشحة أنها لم تلتزم نظام
القوافى الموحدة كالقصيد الشعرية وانما اشتملت على قواف

(١٨٤) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ص ٩٨ - ١٠٢ ، ابن عبد الملك المراكشى
الذيل : ق ١ ج ١ ص ٩٢ ، ٩٣ ، العباس بن ابراهيم : الاعلام ج ٢ ص ٧١ *
(١٨٥) محمد الفاس : الشاعر الكبير أبو العباس الجراوى مجلة رسالة المغرب العدد
الخامس ١٩٤٣ ، ص ١١ ، ١٢ ، العدد السابع ١٩٤٣ ص ١١ - ١٣ *

(١٨٦) الرومانسية لهجة عامية مشتقة من اللاتينية ومنها تكونت اللغة الاسبانية ،
ويسمىها العرب الاعجمية أو العجمية أو اللاتينية * (د . أحمد مختار العبادى) : الاسلام
فى أرض الاندلس . مجلة عالم الفكر . المجلد العاشر - العدد الثانى - يوليو - أغسطس -
سبتمبر ١٩٧٩ ص ٣٥٠ *

(١٨٧) د . أحمد مختار العبادى : الاسلام فى أرض الاندلس ص ٣٥٣ *

متعددة • كذلك لم تكن وحدتها البيت الشعرى وانما المقطوعة الشعرية التى تتكون من غصن وقفل ، أى أن الموشحة عبارة عن أغصان وأقفال ، ويسمى القفل الأخير منها بالخرجة • ومن شروط هذه الخرجة أن تكون اما باللغة الأعجمية ، أى الاسبانية ، أو باللغة العامية الدارجة كما يشترط فيها أن تكون حادة محرقة ، حارة منضجة ، على حد قول ابن سناء الملك •

كذلك جرت العادة أن تكون الخرجة على لسان فتاة تتغزل فى الفتى ، على عكس القصيدة العربية التى نجد فيها الرجل هو المحب بينما المرأة قاسية متكبرة معرضة فكان الوشاح يأخذ هذه العبارة الاسبانية أو العامية لتكون مركز الخرجة ، ثم يبنى عليها بقية الموشحة ، فكان الموشحة تبدأ من آخرها ، على عكس القصيدة الشعرية التى تهتم بمطلعها أى بالبيت الأول منها وفيما يلى مثال لهذا الغصن الأخير من الموشحة بما فيه الخرجة :

ليل طويل
ولا معين
ياقلب بعض الناس
لاتلين
أنا قول قوقو
ليس بالله تذوقو

والخرجة هنا اسبانية قوقو Cucu ومعناها الماكر • فالوشاح سمع من محبوبته هذه العبارة : أنا أقول أنت مكار ولن تذوق طعم قبلتى ، فاهتزت لها نفسه وجعلها مركزا أو خرجة لموشحته (١٨٨) •

(١٨٨) د • أحمد مختار العبادى : الاسلام فى أرض الاندلس ص ٣٥٤ •

ولاشك أن هذه الخرجات العامية أو الاعمجية ، الدليل
الواضح على أنها نمط مختلف عن الشعر العربي التقليدي .
ومهما قيل من أن فن الموشح بدأ من قديم في المشرق على
شكل المسمطات المعروفة عند شعراء الجاهلية قبل الاسلام فان
الشيء الثابت هو أن ذيوع هذا الفن بدأ في الاندلس وانتشر
من هناك منذ القرن الرابع الهجرى *

وما يقال عن الموشحات يقال أيضا عن فن الأزجال الذى
انتشر بعد ذلك فى الاندلس فى القرن السادس الهجرى
(١٢ م) ويلاحظ أن الموشحة والزجل فن شعري واحد مع
فارق أساسى هو أن الموشحة عربية صميما ماعدا الجزء الأخير
منها وهو الخرجة ، فباللغة الاسبانية أو العامية الاندلسية ،
أما لغة الأزجال كلها ، فهى اللغة العامية الدارجة الجارية على
السنة عامة الناس فى البيوت والأسواق ، وتتخللها كلمات
وعبارات من عجمية أهل الاندلس ، وممثل هذا اللون من
الشعر الشعبي أى الازجال هو أبو بكر محمد بن قرمان
القرطبى الذى عاش فى القرن السادس الهجرى على عهد
المرابطين وتوفى سنة ٥٥٤ هـ / ١١٦٠ م وله ديوان أزجال
كان يتغنى بها فى الأسواق والحفلات بمساعدة بعض الآلات
الموسيقية وجوقة من المنشدين لترديد الخرجة أو المركز عقب
كل فقرة ينشدوها * وتجدر الإشارة هنا الى أن الخرجة ليست
شرطا من شروط الزجل كما هو الأمر فى الموشحات
الاندلسية ، غير أن عددا كبيرا من الازجال القزمانية لها
خرجات توفرت فيها كل شروط خرجة الموشحة (١٨٩) *

وطبيعى أن يسير أبناء المغرب من الشعراء - أو بعضهم
على الأقل - فى نفس التيار الجديد لفن الموشحات والازجال ،

(١٨٩) د . أحمد مختار العبادى : الاسلام فى أرض الاندلس ص ٣٥٤ .

تأثرا بتيار الشعر الاندلسى اعتبارا من الوحدة السياسية بين
المغرب والاندلس فى عهد المرابطين حتى اذا بدأ عهد
الموحدين كان من بين أبناء المغرب من اشتهر بالتوشيح
والزجل ، مثل الشاعر ابن غزلة الذى كان معاصرا للخليفة
عبد المؤمن ومحباً لابنته ربيعة الذى قال فيها موشحته التى
مذهبها (١٩٠) :

من يصيد صيدا فليكن كما صيدى
صيدى الغزالا فى مراتع الاسد

كما أن ربيعة ابنة عبد المؤمن كانت بدورها شاعرة
فصيحة اللسان تنظم الأزجال الرائعة ومنها هذا الزجل الذى
مطلعه (١٩١) :

مشى السهر حيران حتى رأى انسان عيني وقف
وفى خرجته تقول واصفة خالا بخد حبيبها : (١٩٢)
أسيمر جنسان فى شقة من نعمان قد التحف

ومن شعراء المغرب أيضا الذين لمع اسمهم فى سماء
التوشيح فى العصر الموحدى الشاعر أبو حفص عمر السلمى
الاجماتى المتوفى سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م والذى كانت له
موشحات يغنى بها فى الأقطار نذكر منها (١٩٣) :

حسانة رخيمة عانت منها البانة
والنقى الرجراج واشوقى لحسانه

(١٩٠) د. عباس الجراي : الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي . (الدار
البيضاء ١٩٧٤) ص ١١١ .

(١٩١) د. عباس الجراي : موشحات مغربية (الدار البيضاء ١٩٧٣) ص ١٤٧ .

(١٩٢) د. عباس الجراي : الأمير الشاعر ص ١١١ .

(١٩٣) ابن سعيد : القصص الياقة فى محاسن شعراء المائة السابعة . تحقيق ابراهيم

الايباري (القاهرة ١٩٧٧ م) ص ٩٣ .

له أنظام بديعة ، وتآليف حسنة ، منها التوشیحات النبویة
على حروف المعجم ، وقد عرف عنه أنه كان شاعرا رقیقا
مطبوعا نافذ الذهن ، رشیق العبارة ، حلو الدعابة (١٩٤) .

ومن الشعراء من امتاز بقریحة تتجاوب مع الاحداث
والمناسبات ، فهناك مثالا لسان الدين بن الخطیب صاحب
النونية المشهورة ، وهی القصیدة الطویلة التى تزید على
المائة بیت والتى مدح فیها السلطان أبا سالم المرینی حین فتح
تلمسان والتى یقول فی مطلعها (١٩٥) .

أطاع لسانی فی مدیحك احسانی

وقد لهجت نفسی بفتح تلمسان

وتجدر الإشارة هنا الى أنه كان من بین سلاطین بنی مرین
وأمرائهم شعراء موهوبون ینظمون كثيرا من الشعر ، وان
كان الغالب على قصائدهم القصر ، ومن هؤلاء السلاطین
أبو العباس أحمد المرینی الذى اعتلى عرش المغرب سنة
٧٨٩ هـ / ١٣٨٧ م ومن شعره (١٩٦) .

یاعاذلی دع عنك عدل العاذل

واخلع عذارك فی الحبيب الواصل

واذا ذكرت عشیة بمحاسن

فاذكر عشایانا بدار العادل

ولقد كان لسقوط معظم الامارات الاسلامیة فی
الاندلس ، وقع أليم فی نفوس المغاربة ، . ملوکهم ،

(١٩٤) الکتانی : سلوة الانفاس ج ٣ ص ٩٩ .

(١٩٥) المقرئ : نفح العلیب ج ٥ ص ٣٢ - ٣٦ .

(١٩٦) الکتانی : سلوة الانفاس ج ٣ ص ١٦٦ .

وعلمائهم ، وأدبائهم ، فلا غرابة اذا وجدنا بعد ذلك شعراء
المغرب يتناولون فى شعرهم هذه القضية ، ويعبثون الناس
من أجل الدفاع عن المقدسات * . فهذا مالك بن المرحل ،
ينظم قصيدة ، يدعو فيها المغاربة الى مساعدة اخوانهم
الاندلسيين ، وهى قصيدة مؤثرة تحكى قصة الأمة الجريحة
ومأساتها فى معالم دينها قال فى مطلعها (١٩٧) *

استنصر الدين بكم فأقدموا
فانكم ان تسلموه يسلم

لا تسلموا الاسلام ياخواننا
راسرجوا لنصره والحموا

كما كان للمعارك الحربية التى خاضها الجيش المريني
فى الساحة الاندلسية صدهاء فى الشعر فقد ذكر ابن الخطيب
عدة أبيات لكاتب دولة بنى سريين أبى القاسم ابن رضوان
النجارى المالمقى فى مدح الاسطول المرينى (١٩٨) :

ولما استقامت بالزقاق أساطل له
واستقامت للسعود محاملا

رأها عدو الله وانقض جمعه
وأبصر امواج البحر أساطلا

ومن جندكم هبت عليه عواصف
تدمر آدناها الصلاب الجنادلا

(١٩٧) ابن أبى زرع : الذخيرة السنية ص ٩٨ .

(١٩٨) ابن الخطيب : الاحاطة ج ٣ ص ٤٤٧ ، د . أحمد مختار العبادى : دراسات

فى تاريخ المغرب والاندلس ص ٣٨٦ .

التاريخ :

تأثرت الكتابة التاريخية فى المغرب بالكتابة الاندلسية .
للتاريخ . وقد كان التاريخ الاندلسى فى مظهره وأسلوبه
تاريخا عربيا اسلاميا ، يسلك مسلك المشاركة فى منهجه
وروايته : فهناك طريقة الحوليات أى الكتابة على ترتيب
السنين ، وهناك توارىخ الخلفاء والملوك التى تعالج دولة كل
قطر منهم على حدة ، وهناك كتب التراجم والطبقات ومايتبعها
من ذيول وصلات ، هذا الى جانب توارىخ المدن المحلية التى
فاق الاندلسيون فيها اخوانهم المشاركة ، ولعل ذلك يرجع الى
ظاهرة اللامركزية التى تميزت بها طبيعة الاندلس . كذلك
اتبع الاندلسيون فى معالجة تاريخهم تلك الطرق التى اتبعها
اخوانهم المشاركة أيضا والتى تقوم على النقل والاقتباس ،
أو المشاهدة العينية، وتحرى الحقائق فى جمع المعلومات أو
الاستعانة بالوثائق والمراسلات والآثار المادية ، أو على تحليل
الأحداث والتعرف على عللها والنفاذ الى أسرارها (١٩٩) .

على أن أهم ما تميزت به الكتابة التاريخية فى الاندلس
هو دقة الأخبار التى أوردتها المؤرخون الاندلسيون عن الممالك
المسيحية فى شمال أسبانيا وماوراءها ، ومعرفتهم التفصيلية
الواسعة بأخبارها ، مما يدل على أنهم اطلعوا على مدونات
لاتينية مسيحية قديمة ، أو أنهم استمدوا هذه الأخبار من
أهل الذمة من النصارى واليهود المقيمين فى الاندلس
والعارفين بأخبار هذه الممالك المسيحية التى فى الشمال ،
وهو فى كلتا الحالتين أمر يدل على تأثر مؤرخينا الاندلسيين
بالثقافة اللاتينية المسيحية ، فضلا عن امكانية معرفتهم باللغة
الأسبانية التى كانت شائعة بين معاصريهم من مسلمى الاندلس

(١٩٩) د . أحمد مختار العبادى : الاسلام فى أرض الاندلس ص ٣٥٦ .

وكان هذا أمرا طبيعيا بحكم الجوار والمعايشة بالاضافة الى ما عرف عن الاندلسيين من ولع شديد بعلم التاريخ ، الى درجة أنهم كانوا يعتبرونه أنبل علم عندهم على حد قول ابن سعيد المغربي ، ولهذا أقبل الأندلسيون بدافع هذه الحاسة التاريخية الى تلمس الأخبار وتقصى الحقائق من مختلف مظانها اللاتينية واليونانية القديمة لمعرفة تاريخ وحضارة الامم المجاورة لهم منذ أقدم العصور (٢٠٠) .

وقد توافر عدد من المؤرخين الاندلسيين الذين عاشوا فى العصر المرابطى امثال : عبد الرحمن بن على الصقر الذى سكن مدينة مراكش وتوفى بها سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٨ (٢٠١) حيث صنف عدة كتب تاريخية منها مختصر السير والمغازى من سير ابن اسحاق (٢٠٢) ومختصر تاريخ ابن جعفر الطبرى فى سفر متوسط (٢٠٣) ، ومنتخب سير المصطفى لأبى سعد عبد الملك بن محمد الخراسانى الواعظ (٢٠٤) وابى الحسن على بن بسام الشنترينى ، صاحب كتاب (الذخيرة فى معاسن أهل الجزيرة) المتوفى سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م وكتابه هذا بين كتب التاريخ والأدب والقيمة الشهيرة فى عصرنا الحاضر .

ان هذا العمل العلمى الذى قام به هذا العالم لدليل على أن المصنفات التاريخية التى اضطلع بها الاندلسيون كانت متداولة بين أيدي الباحثين والدارسين المناربة فى العهد المرابطى .

(٢٠٠) د. أحمد مختار العبادى : الاسلام فى أرض الاندلس . ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

(٢٠١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ق ٢ ص ٤٠٩ .

(٢٠٢) العباس بن ابراهيم ، الاعلام ج ٨ ص ٥٦ .

(٢٠٣) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ق ٢ ص ٤٠٩ .

(٢٠٤) نفس المصدر ونفس الصفحة .

ومن الاندلسيين الذين أرخو للدولة المرابطية يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري الصيرفي المتوفى بغرناطة سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦١ م (٢٠٥) والذي صنف كتابه المسمى «الانوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية» (٢٠٦) وكتاب «قصص الانباء وسياسة الرؤساء» (٢٠٧) والمؤرخ الكبير ابن بشكوال صاحب كتاب الصلة (٢٠٨) الذي فرغ من تأليفه سنة ٥٣٤ هـ (٢٠٩) / ١١٣٩ م .

اما في العهد الموحدى فقد نشطت عملية التأليف التاريخي بين أبناء المغرب وظهر منهم عدد كبير وطبيعى أن تتأثر الكتابة التاريخية في المغرب بالكتابة الأندلسية للتاريخ نظرا لاستاذية مؤرخي الأندلس لابناء العدو المغربية وتداول كتبهم فيما بينهم * فنجد في العصر الموحدى مجموعة من المؤلفات التاريخية الهامة يأتى في مقدمتها : المعجب في أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى ، ونظم الجمان لابن القطان ، وتاريخ المن بالاسامة لابن صاحب الصلاة (٢١٠) كما يظهر ميل المغاربة للكتابة في تاريخ المدن المغربية متأثرين في ذلك بمؤرخي الأندلس مثل كتاب القاضي ابي الخطاب سهل بن القاسم زغبوش المكناسي في تاريخ

(٢٠٥) ابن سعيد : المغرب في حل المغرب ج ٢ ص ١١٨ ، عبد الله كنون . السويع المغربي ج ١ ص ٧٣ .

(٢٠٦) المقرئ : نفع العليب ١٨١/٣ .

(٢٠٧) محمد عبد الله عنان عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ، العصر الثالث ق ١ ص ٤٤٣ ، ٤٤٤ .

(٢٠٨) ابن خلكان ، وفيات الاعيان وانباء الزمان . تحقيق د. احسان عباس (بيروت ١٩٧٧) ج ٢ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

(٢٠٩) ابن بشكوال : الصلة ج ٢ ص ٦٦٧ ، ابن خلكان : ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٢١٠) د. حسن على حسن : الحضارة الاسلامية ص ٥٠٣ .

مدينة مكناس (٢١١) ، وما زال المغاربة الى يومنا هذا يميلون الى الكتابة فى تاريخ المدن *

وقد تميز عصر بنى مرين بأنه العصر الذى بدأ فيه معرفة مدلول ومفهوم علم التاريخ « اذ هو فى ظاهره لا يزيد على اخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأولى وفى باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق » (٢١٢) *

وطبيعى أن تنشط حركة التاريخ مع هذا النضج الذى تصبح فيه العلل والكيفيات والأسباب والنتائج هى فقه التاريخ ، ولا زال هذا التعريف يعتبر من أدق ما قيل فى هذا العلم ، وهو تعريف أعجب به وأشار اليه نفر من كبار المؤرخين فى الغرب (٢١٣) *

ولا شك فى أن سلاطين بنى مرين فى القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى كانوا يشجعون كتابة التاريخ ، اذ ليس من قبيل المصادفة أن تزدهر المدرسة التاريخية فى فاس فى ذلك الوقت ويصبح لسلاطين بنى مرين عدد من المؤرخين الرسميين ، ويحتشد العصر بعدد كبير من المؤرخين وكتاب السير والرحلات تألق منهم الكثير ، فهناك بن مرزوق الخطيب صاحب المسند الصحيح الحسن فى مآثر ابي الحسن ، ولسان الدين بن الخطيب صاحب الاحاطة فى اخبار غرناطة ، والجزنائى الذى وضع كتابه التاريخى الهام : (زهرة الآس فى تاريخ بناء مدينة فاس) وابن ابي زرع صاحب كتاب

(٢١١) محمد المتولى : العلوم والاداب ص ٦٩ *

(٢١٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٧ *

(٢١٣) د. حسين مؤنس : التاريخ والمؤرخون ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الأول ١٩٧٤ م ، ص ٤٩ *

(الانيس المطرب) و (الذخيرة السننية) ، وبن عذارى المراكشي صاحب كتاب (البيان المغرب) ، واسماعيل بن الأحمر الذى رحل من الأندلس وعاش فى كنف بنى مرين ، والذى من مؤلفاته (النفحة النسرينية واللمحة المرينية) ، و (روضة النسرين) * وبن القنفذ صاحب (الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية) ، (٢١٤) وبن عبد الملك المراكشي ، وهو من كتاب السير والتراجم ، وأبو عبد الله الزرعى السبتي فى أخبار العلماء والأدباء والتعريف بهم (٢١٥) .

ومن مؤرخى الحضارة الاسلامية أبو الحسن الخزاعى التلمسانى الذى ألف كتابه : (تخريج الدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية) (٢١٦) وفى هذا الكتاب لم يترك أبو الحسن خطة ولا وظيفة ولا مرتبة ولا صناعة أو عملا آخر من أعمال المجتمع الاسلامى الا واثبت أصله فى الاسلام ودليله من السنة ، وعمل الخلفاء الراشدين وأول من باشر تلك الأعمال من الصحابة أو من ولادة الرسول - صلى الله عليه وسلم * .

ويضاف الى هؤلاء المؤرخين الرحالة ، فهناك محمد بن عبد الله محمد بن أحمد بن موسى بن هذيل العبدري الذى سافر الى الحجاز لأداء فريضة الحج فى سنة ٦٨٨ هـ ، واخترق المغرب الأقصى الى المغرب الأوسط وافريقية ثم اخترق ليبيا براحتى الاسكندرية ثم سلك الطريق البرى من مصر الى مكة المكرمة ، وكانت عودته الى المغرب عن طريق فلسطين ومصر

(٢١٤) ابن القاضى : جلوة الاقتباس ص ٧٨ .

(٢١٥) عبد الله كنون : النبوغ المغربى ج ١ ص ٢٠٩ .

(٢١٦) محمد الطمار : تاريخ الادب الجزائرى - الجزائر ١٩٦٩ م ، ص ٢٠٩ .

وليبييا ، وقد وصف العبدري مدن المغرب ومصر وذكر آثارها ومعالمها واهتم بوجه خاص بالنواحى الثقافية والاجتماعية ، فذكر الخصائص البارزة فى سكان الأقاليم التى مربها * وهناك أيضا من الرحالة المغاربة فى عصر بنى مرين أبو عمر عبد الله بن رشيد النوشريشى ، وابن رشيد السبتي الفهرى (٢١٧) .

على أن أهم هؤلاء الرحالة المغاربة واشهرهم هو ابن بطوطه وتسمى رحلته : تحفة النظار فى غرائب الأمطار وعجائب الأسفار (٢١٨) ، وقد ولد ابن بطوطه فى مدينة طنجة عام ٧٠٧ هـ / ١٣٠٧ م وأقام بها حتى سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م وعندئذ قام بثلاث رحلات واسعة النطاق جاب فيها كثيرا من البلاد : الرحلة الأولى استغرقت ٢٤ سنة مر فيها بمراكش والجزائر وتونس وطرابلس والمغرب ومصر وفلسطين والشام والحجاز حيث حج حجته الأولى ثم رحل الى العراق وفارس والاناضول ثم الى الحجاز مرة أخرى ليحج حجته الثانية ، ومن الحجاز سافر الى اليمن وافريقيا الشرقية فالخليج الفارسى ثم الى مكة المكرمة حيث حج للمرة الثالثة ، وبعد ذلك اتجه الى الهند وخوارزم وتركستان وأفغانستان والسند والصين حتى عاد الى بلاد العرب عن طريق جزيرة سومطرة سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م ، ثم زار بلاد العجم والعراق وسوريا وفلسطين ، ومنها الى بلاده مارا بمصر وتونس والجزائر حتى وصل فاس سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م . ولكنه لم يلبث أن قام برحلته الثانية فرحل الى الاندلس حيث

(٢١٧) د . السيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب الاسكندرية ص ٢٢٦ - ٢٢٩ .

(٢١٨) د . حسين محمد ربيع : محاضرات فى مناهج البحث فى التاريخ . مطبوعات كلية أداب القاهرة ١٩٧٤ م ص ٤٧ .

زار مالقة وغرناطة ثم عاد الى فاس حيث أوفده السلطان أبو عنان المريني في سفارة الى بلاد السودان الغربي في أول سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م ، واستمرت رحلته الثالثة هذه مايقرب من عام (٢١٩) ، ثم بعد عودته الى فاس ، وفي بلاط السلطان المريني أملى ابن بطوطة كتاب الرحلة (تحفة النظار) لمحمد بن جزى الكلبي بإشارة من السلطان (٢٢٠) .

ولم تقف حركة التأريخ في عصر بني مرين عند هذا النشاط الذي تميز به هذا العصر فحسب ، وانما تعداه الى أمور أخرى في غاية الأهمية . كان أولها : ظهور النهج الجديد في الكتابة التاريخية ، وثانيها : التجديد في فن (الاتوبيوجرافيا) Auto-Biographic وهو ترجمة المؤلف لنفسه ، وقد كان على رأس أبطال هذا السبق العلامة ابن خلدون الذي استطاع أن يجسد تلك التجديدات في فن كتابة التاريخ في كتابه (العبر ، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر) والذي جرت العادة باختصار اسمه في كلمتي (كتاب العبر) ، وهناك أيضا لسان الدين بن الخطيب في كتابه (الاحاطة في أخبار غرناطة) (٢٢١) . ويتلخص هذا السبق في ذلك النهج الذي اتبعه هؤلاء المؤرخون حيث عمدوا الى تقسيم مؤلفاتهم الى كتب ، وقسموا كل كتاب الى فصول متصلة ، تتبعوا فيها تاريخ كل دولة على حدة من البداية الى النهاية مع مراعاة نقط الوصل والتداخل بين مختلف الدول ، بينما كان نهج كثير ممن كتبوا التاريخ قبل ذلك هو الحرص على وضع مؤلفاتهم في صورة جداول تاريخية مرتبة وفق

(٢١٩) د . حسنين محمد ربيع : محاضرات في مناهج ص ٤٧ .

(٢٢٠) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١٦٦ .

(٢٢١) د . علي عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

السنين ، وتجمع حوادث كل سنة فى جدول واحد على الرغم من تباعد مواطنها ، وعدم ارتباطها بعضها ببعض فجاء هذا النهج الجديد أقرب الى الدقة والتنسيق (٢٢٢) .

صحيح أن ابن خلدون ليس أول من ابتدع هذه الطريقة ، فقد سبقه اليها منذ القرنين الثالث والرابع عدد من المؤرخين كالواقدي ، والبلاذرى ، وابن عبدالحكم المصرى والمسعودى ، ولكن ابن خلدون يمتاز عن أسلافه ممن سلكوا هذا المنهج فى الكتابة التاريخية ببراعة التنظيم والربط وحسن السبك ، كما يمتاز عنهم بالوضوح والدقة فى تبويب الموضوعات والفهارس وهذا مادعا المؤرخ الانجليزى (روبرت فلينت) أن يقول :

«إذا نظرنا الى ابن خلدون كمؤرخ وجدنا من يتفوق عليه من كتاب العرب أنفسهم ، وأما كواضع لنظريات فى التاريخ ، فانه منقطع النظر فى كل زمان ومكان» (٢٢٣) .

علم التصوف :

هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة فى الاسلام وأصله أن طريقة هؤلاء القوم مستمدة من السلف ومن سبقهم من الصحابة والتابعين ، وتتلخص فى العكوف على العبادة ، والانقطاع الى الله تعالى ، والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه (٢٢٤) . وقد عرف المغرب التصوف على عهد الموحدين ولكن فى نطاق ضيق بدأ انتشاره من مدينة سبتة

(٢٢٢) د . على عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون ص ٢٣٦ .

(٢٢٣) المرجع السابق : الصفحة ذاتها .

(٢٢٤) المرجع السابق : ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

فقد ترسخ فى سبته التفكير الصوفى بما كان لابن العريف من أصداء قوية نقلها عنه من شرق الأندلس صديقه القاضى عياض الذى كان يكتابه فى العهد المرابطى * ويضم عصر بنى مرين عددا كبيرا من رجال التصوف المتضلعين فى مختلف العلوم والمعارف (٢٢٥) * ومن هؤلاء على سبيل المثال العالم المتصوف أبو زيد الهزميرى المتوفى سنة ٧٠٦ هـ / ١٣٠٦ م والذى حسم خلافا وقع بين علماء فاس استمر ثلاثة أيام يجادل فيه العلماء ، ولولا علم وحكمة هذا العالم الصوفى لتصاعد الأمر واتسعت هوة الخلاف (٢٢٦) ومنهم أيضا محمد ابن موسى الحلقاوى المتوفى سنة ٧٥٨ هـ / ١٣٥٦ م والذى كان حافظا للحديث ذاكرة للفقه باحثا فى مسائله (٢٢٧) *

ومن أشهر الصوفية فى عصر بنى مرين الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبى اسحق بن ابراهيم بن أبى بكر بن عباد المتوفى سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٩٩ م (٢٢٨) والذى طلب العلم صغيرا وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ثم تعلم العلوم النحوية والأدبية والأصولية والفروعية ثم اتجه بعد ذلك فى طريق الصوفية (٢٢٩) ، ومن كلامه : «الاستئناس بالناس من علامات الافلاس ، وفتح باب الانس بالله تعالى الاستيعاش من الناس» (٢٣٠) * ومن كلامه أيضا : «من لازم الكون وبقي معه وقصر همته عليه ولم تنفتح له طريق الغيوب الملكوتية ، ولا خلص يسره الى فضاء مشاهدة

(٢٢٥) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٩٢ *

(٢٢٦) المصدر السابق ص ٢٦٣ *

(٢٢٧) المصدر السابق ص ١٩٢ ، الكتانى : سلوة الانفاس ج ٣ ، ص ٢٧٤ *

(٢٢٨) الكتانى : سلوة الانفاس ج ٢ ص ١٣٩ - ١٤٢ *

(٢٢٩) المقرئ : نفح الطيب ج ٥ ص ٣٤١ *

(٢٣٠) المصدر السابق : ص ٣٤٣ *

الوجدانية ، فهو مسجون بمحيطاته ، ومحصور فى هيكـل ذاته (٢٣١) .

ومن هؤلاء الصوفية أيضا يحيى بن السراج المتوفى سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢ م والذي انتهت اليه رئاسة الحديث فى وقته (٢٣٢) .

ومنهم أيضا أحمد بن سعيد الشهير (بالهباك) المتوفى سنة ٨٧٠ هـ / ١٤٦٥ م والذي كان فقيها شاعرا نظم كثيرا من القصائد الشعرية فى التصوف (٢٣٣) .

ولما كان للمتصوفة فى عصر بنى مرين تلك المكانة العلمية فقد تولى كثير منهم بعض مناصب الدولة ، فكان من بين المتصوفة من تولى منصب القضاء كالحسن بن عثمان التيجانى (٢٣٤) ، ومحمد بن على الكزولى (٢٣٥) ، ومحمد ابن أحمد بن بكر بن يحيى المقرئ الذى كان قاضيا للجماعة بقباس ، وكانت له بعض الكتب التى وضعها فى التصوف ككتاب (اقامة المزيـد ورحلة المتبتل) ، وكتاب (الحقائق والرقائق) (٢٣٦) .

ومن المتصوفة من تولى الامامة والخطابة ، كأبى عبد الله محمد بن ابراهيم الرندى الذى كان اماما وخطيبا بمسجد القرويين بقباس (٢٣٧) ، ومنهم أيضا من كان يقوم بمهمة

(٢٣١) المقرئ : فتح الطيب ج ٥ ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ .

(٢٣٢) الكتانى : سلوة الانفاس ج ٢ ص ١٤٣ .

(٢٣٣) المصدر السابق : ج ٣ ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٢٣٤) المصدر السابق : ج ٣ ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٢٣٥) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٤٣ .

(٢٣٦) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٤٠ .

(٢٣٧) الكتانى : سلوة الانفاس ج ٢ ص ١٣٥ .

أمر الناس بالمعروف ونهيههم عن المنكر مثل محمد بن موسى
الحلفاوى الاشبيلي الذى كلفه السلطان أبو عنان بالضرب على
أيدي العايشين والمعتدين (٢٣٨)

علم تعبير الرؤيا :

الرؤيا موجودة فى الجنس البشرى منذ القدم ، كما كان
التعبير لها موجودا أيضا وفى القرآن الكريم اشارة الى ذلك ،
حينما قص يوسف عليه السلام رؤياه على والده يعقوب
عليه السلام ، وكذلك حينما كان يوسف عليه السلام يعبر
الرؤيا لمن يقصها عليه ، وقد عرف تعبير الرؤيا على عهد
النبي صلى الله عليه وسلم ، وعرفه الصحابة والسلف - لكنه
لم يصبح علما ضمن العلوم الا بعد أن صارت العلوم
صنائع (٢٣٩) •

ويبدو أن علم تعبير الرؤيا حتى عصر بنى مرين لم يكن
من العلوم الهامة التى عكف على دراسته العلماء ، وتعتبر
القوانين التى نقلت عن محمد بن سيرين هى المرجع الأساسى
فى المغرب حتى نهاية عصر بنى مرين ، ومع ذلك فاننا نجد
من علماء العصر من يضع كتباً فى هذا العلم مثل بن أبى طالب
القيروانى • الذى وضع كتاب (الممتع) ، والشاطبى الذى
وضع كتاب (الاشارة) (٢٤٠) •

(٢٣٨) الكتانى : سلوة الانفاس ج ٣ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ •

(٢٣٩) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٤٩ •

(٢٤٠) المصدر السابق : ص ٤٥١ •

ثانيا - العلوم العقلية

العلوم العقلية أو الحكمية فهي تلك العلوم التي يهتدى اليها الانسان بفكره ومبذركه البشرية (١) ، فالمعنى الدقيق لكلمة الحكمية هو أنها تعنى المنسوبة الى الحكمة ، وهي ترجمة عربية دقيقة لكلمة (الفلسفية) المأخوذة من اليونانية (٢) .
Philosophié. Du grec : Philos : =Amiljet
et Sophia Sagesse وتتفرع علوم كل صنف من هذين الصنفين الى علوم أخرى فرعية تتفرع بعضها مرة أخرى الى فروع لقرو (٣) .

وقد اشتملت العلوم العقلية أو الحكمية على : علم المخطئ وعلم الالاهيات (ماوراء الطبيعة) ، علم الطبيعيات ، وعلم التعاليم (الرياضيات) وعلم تقويم البلدان (الجغرافيا) (٤) .

(١) ابن خلدون : المقدمة : ص ٤٠٠ .

(٢) د علي عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون (سلسلة اعلام العرب) ، القاهرة ، ص ٣٠٦ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٥٢ .

(٤) المصدر السابق : ص ٤١ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٦٧ .

(٥) المصدر السابق : ص ٤٦١ .

علم المنطق :

هو : «قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد فى الحدود
المعرفة للماهيات ، والحجج المشيدة للتصديقات » (٥) .
ولم يلق علم المنطق حتى نهاية عصر بنى مريين اهتماما
من علماء المغرب لذلك فقد كانوا لا يتداولون الا كتب
المتأخرين : « وهجروا كتب المتقدمين وطرقهم كأن لم تكن ،
وهى ممثلة من ثمرة المنطق وقائده » (٦) .

ومما يلاحظ أيضا على العلماء فى عصر بنى مريين أن
من اهتم منهم بهذا العلم كان كضرورة لتناول علوم أخرى ،
كالفلك والرياضيات مثل ابن البناء العددي الذى وضع عدة
مؤلفات فى المنطق (الكليات فى المنطق) وشرح عليه ،
و (القوانين) الذى ألفه لابن القاضى العمرانى ، وكتابه
(الأصول والمقدمات) (٧) وطبيعى اذا كان هذا هو حال
علم المنطق فى عصر بنى مريين فانه يكون الاعتماد على
المختصرات لهذا العلم مثل (الموجز) و (المجمل) الذى فى
قدر أربعة ورقات ، وكلا المختصرين كانا لكتاب (كشف
الأسرار) لأفضل الدين الخونجى (٨) . كما ورد ان المقرئ
الكبير كان من المشاركين فى الأصلين الجدل والمنطق (٩) .

علم الالاهيات :

هو : « علم ينظر فى الوجود المطلق » (١٠) . وهو

(٦) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٦٣ ، ٤٦٤ .

(٧) الكتانى : سلوة الاناس ج ٣ ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

(٨) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٦٣ .

(٩) ابن مريم : البستان فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان . الجزائر ١٩٠٨

ص ١٥٥ .

(١٠) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٦٦ .

ما نسميه حاليا بالميتافيزيقا أى (ما وراء الطبيعة (١١)
Metaphysique-du grec : Metata Apres, et Phusika = Physique

وأول من عرف بالاشتغال بعلم الالاهيات فى الأندلس ،
أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبى ت ٣١٩ هـ /
٩٣١ م وهو أول مفكر أصيل انجبته الأندلس ، وكان يستر
آراءه وراء ستار من آراء المعتزلة والباطنية ، وتنعكس فى
مذهبه الحقيقى آراء الافلاطونية الحديثة (١٢) . وقوامها
الأفكار التى قال بها فيلون الاسكندرى وأفلوطين وفرفورىوس
الصورى وبروقلتيس ونسبت الى أنبذوقليس ، وتعتمد على
وجود مادة روحانية يشترك فيها جميع الكائنات عدا الذات
الالهية واعتبرت هذه المادة أول صورة برزت للعالم
العقلى (١٣) ، واتهم بن مسرة بالزندقة ، فخرج فارا من
الأندلس وتردد بالمشرق فترة اشتغل خلالها بملاقاة أهل الجدل
وأصحاب الكلام ، ثم انصرف عائدا الى الأندلس (١٤) .
وخلف بن مسرة تلاميذ حملوا لواء آرائه من بعده بينهم رشيد
ابن فتح الدجاج القرطبى ٣٧٦ هـ / ٩٨٦ م الذى اتهم
بمذهب بن مسرة (١٥) ، والياس بن يوسف الطليطلى ، وخليل
ابن عبد الملك (١٦) ، ومحمد بن عبد الله بن عمر بن خير
القيس (١٧) .

وأهم ماتميز به علم الالاهيات فى الاندلس وبغداد هو

(١١) د. على عبد الواحد واقى : عبد الرحمن خلدون ص ٣٠٨ .

(١٢) جنثالت بالنثيا : تاريخ الفكر ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

(١٣) نفس المرجع ، ونفس الصفحة .

(١٤) ابن القرض : تاريخ علماء الاندلس قسم ٢ ص ٤٠ ترجمة رقم ١٢٠٤ .

(١٥) نفس المصدر قسم ١ ص ١٤٧ ترجمة رقم ٤٣٩ .

(١٦) احسان عباس : تاريخ الادب الاندلس . الجزء الثانى من المكتبة الاندلسية

بيروت ١٩٦٠ ص ٥٢ - ٥٨ .

(١٧) د. السيد عبد العزيز سالم : قرطبة ج ٢ ص ٢١٨ .

التوفيق بين العقيدة والعقل أو الدين والعلم - فكان
أرسطاطاليس فى نظر علماء الالاهيات حقا وافلاطون حقا
والقرآن الكريم حقا ، ولكن الحق يجب أن يكون واحدا ومن
هنا ظهرت ضرورة التوفيق بين الثلاثة ولقد كان لما أضافوه
المكان الأول اذا راعينا ماكان له أثر على التفكير العلمى
والفلسفى (١٨) "

وبالرغم من أن علم الالاهيات لم يزدهر فى ظل حكم
المرابطين باعتبار أن مجتمع المرابطين كان مجتمع الفقهاء
والعلماء الذين يلتزمون بأحكام الدين ويتشددون فى تنفيذ
مبادئه وتعاليمه (١٩) الا أنه كان يوجد فى عهد المرابطين
بعض علماء الالاهيات والذى كان على رأسهم رجل من رجال
البلاط المرابطى هو أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ
المعروف بابن باجة (٢٠) المعروف عند الافرنج باسم
Avenpace, Avenpase الفيلسوف والعالم والطبيب والموسيقى
وشارح أرسطو الذى ازدهر فى غرناطة وسرقسطة بالاندلس
وتوفى فى فاس سنة ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م (٢١) * ولقد كتب
ابن باجة عدة مؤلفات فى الفلك انتقد فيها آراء بطليموس
فهمه بذلك الطريق ، أمام ابن طفيل ، والبطروجى ، وكتب
مؤلفات أخرى فى 'المادة الطبية' ، التى نقل عنها ابن البيطار ،
وله مؤلفات غير هذه فى الطب كان لها أثر قوى فى ابن
رشد ، مثل كتابه اصلاح الأخلاق * ولكن أهم كتبه هو تدير
المتوحد ، والذى بين فيه كيف أن الانسان دون أى مساعدة
فى طوقه أن يصل الى الاتحاد مع العقل الأول ، وتعليمه كيف

(١٨) محمد مبروك نافع : تاريخ العرب (الكتاب الرابع ١٩٤٩) ص ٧٥٤ .

(١٩) د. حسن على حسن : الحضارة الاسلامية ص ٥٠٦ .

(٢٠) د. محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم ص ٣٣٧ .

(٢١) محمد مبروك نافع : تاريخ العرب ص ٧٥٥ .

أن الكمال التدريجي للروح الانسانية عن طريق الاتصال
بالملا الأعلى هو غرض الفلسفة (٢٢) .

وقد احتضنت مراكش بعض علماء اللاهيات من
الاندلسيين البارزين مثل ، مالك بن وهيب الذى شغل مناصب
هامية فى البلاط المرابطى (٢٣) . الا أنه عندما تحول الى
مدينة مراكش تجنب ممارسة علم اللاهيات ، ولم يظهر من
العلوم فيها الا ما كان ينسجم مع رغبات الحكام المرابطين (٢٤) .
الى أن توفى بمراكش سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م (٢٥) ثم
ازدهر علم اللاهيات فى عصر الموحدين وانطلق من عقالة
كنتيجة طبيعية للتحرر الفكرى ، ومحاربة الجمود العقلى
الذى دعت اليه دعوة ابن تومرت فازدان البلاط الموحدى
بكبار فلاسفة الاندلس ، كان من أهمها شخصيتان كانتا تمثلان
قمة فلاسفة العرب والمسلمين ممن كان لهما أبلغ الأثر فى
دفع عجلة حركة ذلك العلم . وهما : أولا - أبو بكر بن
طفيل ، محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد طفيل
القيسى (٢٦) الذى ولد حوالى سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م
بالاندلس (٢٧) ، وتوفى بمراكش سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م
وحضر المنصور الموحدى تشييع جنازته (٢٨) .

(٢٢) محمد مبروك نافع : تاريخ العرب ص ٧٥٥ ، ٧٥٩ .

(٢٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٥ ص ٤٩ ، ٥٠ ، المرقى : نفع الطيب ج ٣
ص ٤٨٠ ، ٩٤٧٩ .

(٢٤) المراكشى : المعجب ص ١٨٥ .

(٢٥) ابن بشكوال : الصلة ج ٢ ص ٦٢١ .

(٢٦) ابن الخطيب : الاحاطة ج ٢ ص ٤٧٨ ، دائرة المعارف ، المجلد الاول العدد
الرابع ، ص ٢١٢ - ٢٢٦ .

(٢٧) العباس بن ابراهيم : الاعلام ج ٤ ص ١١٧ .

(٢٨) ابن الأبار : المتقضب ص ٧١ ، ابن الخطيب : الاحاطة ج ٢ ص ٤٨٢ .

ويبدو أن منصب ابن طفيل كطبيب خاص ليوسف بن عبد المؤمن الذى خصص له راتبا شهريا (٢٩) قد هيا له فرصة للتفرغ العلمى والانصراف للتأليف والبحث والاشراف على المؤسسات العلمية الموحدية فى مراكش لرفع مستواها العلمى ومما يؤكد مذهب اليه الباحث أن ابن طفيل كان ينتقى خيرة العلماء من الأقطار التابعة للموحدين اداريا ويشير على يوسف بن عبد المؤمن باستقدامهم واکرامهم بقيمة الاستفادة منهم فى العمل بالمؤسسات العلمية بالعاصمة الموحدية (٣٠) .

ولقد كان ابن طفيل موسوعة علمية فالى جانب كونه طبيا حاذقا (٣١) وفيلسوفاً متحققا بجميع أنواع الفلسفة (٣٢) الذى بذل فيها جهدا كبيرا فى سبيل التوفيق بينها وبين الشريعة (٣٣) مصنف عدة مصنفات فى علوم مختلفة (٣٤) ولم يصل منها الى أيدي الباحثين والدارسين فى الوقت الحاضر غير رسالة (حى بن يقظان) (٣٥) وهى تلخيص فلسفى لأسرار الطبيعة والخلقة (٣٦) .

ثانيا : أبو الوليد ، محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد ابن محمد بن أحمد بن عبد الله بن رشد الحفيد (٣٧) الذى

(٢٩) المراكشى : المعجب ص ٢٤٠ .

(٣٠) المصدر السابق ص ٢٣٩ ، ٢٤٢ .

(٣١) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٨٥ ، ابن عبد الملك المراكشى :

الدليل ج ٦ ص ٤٠٧ ، المقرئ : نفح الطيب ج ٣ ص ١٩٣ .

(٣٢) المراكشى : المعجب ص ٢٤٠ .

(٣٣) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٣٤) المصدر السابق ، ص ٢٤٠ ، محى الدين عزوز : التطور المذهبى بالمغرب

ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٣٥) عبد العباس إبراهيم حمادى : الحركة الفكرية ص ٣٦٦ .

(٣٦) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(٣٧) ابن عبد الملك المراكشى : الدليل ج ٦ ص ٢١ .

ولد فى قرطبة سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م (٣٨) من عائلة عرفت
باهتمامها بالقضايا العلمية والبحث والدراسة وتوفى
بمراكش سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م (٣٩) اتصل بالسلطان
الموحدى عن طريق أستاذه أبى بكر بن طفيل الذى أشار على
يوسف بن عبد المؤمن باستدعائه من الأندلس الى العاصمة
الموحديّة (٤٠) ثم طلب منه بعد ذلك يوسف بن عبد المؤمن
أن يقوم بشرح فلسفة أرسطو وتبسيطها (٤١) .

وقد نهض بهذه المهمة التى جعلته من أبعد فلاسفة العرب
صيتا وأعظمهم تأثيرا . وقد حظى ابن رشد بعد وفاة يوسف
ابن عبد المؤمن عند أبيه يعقوب المنصور الموحدى بمكانة
رفيعة حيث خصص المنصور له مكانا فى مجلسه أو جانبه
وذلك سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٤ م (٤٢) .

ويبدو أن تناول هذا العلم لم يحظ باهتمام علماء
المغرب فى عصر بنى مرين وربما كان ذلك لما واجهته الفلسفة
فى عصر بنى مرين من عدم ارتياح عند السلطات الحاكمة .
وذلك بعكس ماواجهته باقى العلوم الأخرى من تشجيع .
ويذكر ابن الخطيب أن أحمد بن محمد بن شعيب الكرباتى
قد مقت بسبب اشتغاله بهذا العلم (٤٣) .

وعلى الرغم من ذلك فقد اهتم بهذا العلم فى عصر بنى
مرين عدد من العلماء ووضعوا فيه عدة تأليف ومن هؤلاء

(٣٨) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج ٤ ص ٣٢٠ .

(٣٩) الضبى : بغية المتلمس ص ٥٤ .

(٤٠) المراكشى : المعجب ص ٢٤٣ .

(٤١) المصدر السابق : ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٤٢) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ج ٢ ص ٧٦ .

(٤٣) ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ ص ٢٧٢ .

محمد بن سعيد بن محمد النجار الفاسي المتوفى سنة ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م وهو الذى اختصر المقدمات لابن رشد ، ومن مؤلفاته التى وضعها فى هذا العلم (الأسئلة والأجوبة) ، واختصار (الحدود للشيرازى) (٤٤) *

ومن هؤلاء العلماء أيضا الذين اهتموا بعلم الالاهيات ابن البناء العدوى الذى وضع كتاب : (مراسم الطريقة فى علم الحقيقة) كما أن له شرحا على هذا الكتاب ومقالات أربع (٤٥) *

الطبيعيات :

«هو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون ، فينظر فى الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من حيوان وانسان ونبات ومعدن وما يتكون فى الأرض من العيون والزلازل ، وفى الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك ، وفى مبدأ الحركة للأجسام وهو النفس على تنوعها فى الانسان والحيوان والنبات» (٤٦) *

وهكذا فان هذا العلم كان يشتمل على علوم الطبيعة والكيمياء والجيولوجيا (طبقات الأرض) والبيولوجيا (علم الحياة) ، وعلوم الاحياء (علم الانسان وعلم الحيوان وعلم النبات) ، والفيزيولوجيا (وظائف الأعضاء) والميتيورولوجيا (علم الجو) ، كما كان من فروع الطبيعيات أيضا فى ذلك الوقت علم الطب والدواء *

(٤٤) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٤٧ ، الكتانى : سلوة الانفاس ج ٣ ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ *

(٤٥) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٧٦ ، ٧٧ *

(٤٦) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٦٤ *

وبالرغم من أن الكتب التي كان يتداولها علماء
الطببيات في المغرب كثيرة إلا أن المعتمدة ، والتي كان
يعتمد عليها أهل هذا العلم هي التي وضعها ابن رشد ولخص
فيها كتب أرسطو وشرحها متبعا غير مخالف (٤٧) * وكتاب
ابن بشر في الكيمياء وهو من كبار تلاميذ مسلمة المجريطي
شيخ الاندلس في هذا العلم *

الطب :

اعتمد أطباء الاندلس بادئ الأمر على كتاب يطلق عليه
«الابريشم» Aphorismi ومنه المجموع ، أو الجامع (٤٨) *

ثم تطور العلم على غرار طب المشرق ، غير أن علماء
الطب ومشتغليه في الاندلس أولوا الجراحة الطبية عنايتهم
الخاصة من دون فروع الطب الأخرى (٤٩) * فازدهر هذا
العلم على يد يونس بن أحمد الحراني ، الذي وفد من المشرق
سنة ٢٣٧ هـ / ٨٥٢ م ، ويقول عنه صاعد الطبقى : «كانت
عنده مجريات حسان في الطب ، واشتهر بقرطبة (٥٠) *

وقد أخذ عنه كثيرون ، كان على رأسهم آيناه أحمد
وعمر ، حيث امتاز الأول بالخبرة في تحضير الأدوية ، واشتهر
الثاني بالكعالة ، والذي يبدو أنه يرجع إليه الفضل في
تأسيس مدرسة طب العيون في الاندلس فهو الذي تتلمذ على
يديه أبو القاسم خلف الزهراوى حيث أخذ عنه طريقة

(٤٧) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٦٤ *

(٤٨) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، تحقيق * فؤاد سيد (القاهرة ١٩٥٥) ص ٩٢ *

(٤٩) سوادى عبد محمد : نثر الفكر الاندلسي بالحركة العلمية في المشرق الاسلامي
مقال بمجلة عالم الفكر * المجلد الثالث عشر * العدد الثاني * يوليو - أغسطس -
سبتمبر ١٩٨٢ ، ص ٦٥٣ *

(٥٠) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ج ٢ ص ٤٢ *

استخراج ماء العين (الكتاراكتا) بواسطة الابرة ، والذي ذاع صيته بين أهل المشرق والمغرب على السواء بالبراعة فى الجراحة الطبية (٥١) وأشار أبو القاسم صاعد بن أحمد الاندلسى الى ان أحمد وعمر رحلا الى المشرق واقاما هناك عشرة أعوام ودخلا بغداد وقرأ فيها على ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الصابى ثم عاد بعد خمسة عشر عاما سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م الى الاندلس فاستخلصهما الأمير الحكيم المستنصر لخدمته فى الطب . وقد خلف أحمد فى قرطبة آثارا نفسية (٥٢) وأضاف ابن أبى أصيبعة أن أحمد بن يونس الحرانى كان : « عاقلا عالما بما شاهد علاجه رآه عيانا بالمشرق (٥٣) » .

ولقد كان لأطباء الاندلس الذين احتشد بهم بلاط المرابطين والموحدين أثره الواضح فى تطور الطب وازدهاره بالمغرب على يد هؤلاء الأطباء الاندلسيين والذي قلد بعضهم مناصب وزارية فى كل من الدولتين المرابطية والموحدية (٥٤) . وكانت لهم مصنفات طبية منها ما يتعلق بالأمراض الغالبة الانتشار فى المغرب والأدوية المناسبة لها (٥٥) .

ومن أهم هؤلاء الأطباء الاندلسيين الذين عملوا بالطب فى المغرب على عهد المرابطين : أبو العلاء زهر بن أبى مروان عبد الملك بن محمد ابن مروان (٥٦) ، والذي توجه للعمل

(٥١) سوادى عبد محمد : تأثر الفكر الاندلسى ص ٦٥٣ .

(٥٢) صاعد الطبقي : طبقات الامم ، نشر محمود صبح (القاهرة) ، ص ١٢٤ .

(٥٣) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ج ٢ ص ٤٦ .

(٥٤) المراكشى : لعجب ص ٢٤٠ ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ج ٢ ص ٦٦ .

(٥٥) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ج ٢ ص ٦٧ ، عبد العزيز بن عبد الله : الطب والاطباء بالمغرب (الرباط ١٩٥٦) ص ٢٤ .

(٥٦) ابن بسام : النخبة قسم ٢ ج ١ ص ٢١٨ ، ٢١٩ ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ج ٢ ص ٦٤ .

فى البلاط المرابطى بدعوة من يوسف ابن تاشفين (٥٧).
وبعد وفاة يوسف بن تاشفين بقى أبو العلا زهر طبيبا لأبيه
وهو الذى استوزره (٥٨) .

ولأبى العلا تصانيف كثيرة فى الطب منها كتاب
« الأدوية المفردة » وكتاب « الايضاح بشواهد الافتضاح فى
الرد على ابن رضوان » (٥٩) . وتوفى بالاندلس سنة
٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م (٦٠) .

ولقد عمل بالبلاط المرابطى أطباء أندلسيون كثير أما
عن الذين عمل منهم فى البلاط الموحدى فكثير جدا ومن
أشهرهم :

أبو مروان عبد الملك بن أبى العلا زهر بن أبى مروان
عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر (٦١) خدم فى بلاط
الدولتين المرابطية والموحدية (٦٢) واستدعاه الى مراكش
عبد المؤمن بن على واتخذة طبيبا خاصا وجعل اعتماده عليه
فى الطب وحباه من الأنعام والعطاء (٦٣) ، ولم يكن فى
زمائه من يفوقه فى مهنته (٦٤) فقد كانت لديه ابتكارات
وطرق لطيفة فى معالجة المرضى (٦٥) وصنف كتباً طبية

(٥٧) عبد العزيز بن عبد الله : طب والأطباء ص ٢٢ .

(٥٨) العباس بن ابراهيم : الاعلام ج ٣ ص ٢٥١ .

(٥٩) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ج ٢ ص ٦٦ .

(٦٠) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٨٥ .

(٦١) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ج ٢ ص ٦٦ .

(٦٢) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٦٣) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٦٤) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج ٤ ص ١٧٩ .

(٦٥) غوستاف لوبون : حضارة العرب . ترجمة عادل زعيتر ، وعيسى البابى الحلبي ،

القاهرة ، ص ٤٩٤ .

كثيرة (٦٦) * كانت مشهورة ومتداولة بين ايدي الناس في المغرب والاندلس (٦٧) ، ودرس الطب بالعاصمة المرابطية والموحدية (٦٨) ومن بين الذين تتلمذوا على يده في العلم المذكور أبو الحكم بن غلندة (٦٩) الذي أصبح طبيباً في البلاط الموحدي فيما بعد (٧٠) وتوفي أبو مروان عبد الملك ابن أبي العلاء بمدينة أشبيلية سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦١ م (٧١) *

ومن الأطباء الآخرين الذين لمعوا في العاصمة الموحدية أبو بكر محمد ابن أبي مروان بن أبي العلاء بن زهر (٧٢) ومحمد بن علي بن سليمان بن رفاعة الجزامي (٧٣) وأبو جعفر الذهبي أحمد بن جرح (٧٤) ، ومن الطبيبات اللواتي اشتغلن بمراكش في العهد الموحدي اخت الحفيد أبي بكر بن زهر وابنتها (٧٥) فقد كانتا عالمتين بصناعة الطب والمداواة ولهما خبرة جيدة بأمراض النساء (٧٦) * ومن خلال ماتقدم يمكن تصور مدى الجهود الضخمة للأطباء الأندلسيين الذين عملوا بمدينة مراكش على عهد الدولتين المرابطيين والموحديين فقد بذلوا جهوداً جبارة في مجال اختصاصهم سواء على صعيد التصدي لتطبيب الجماهير المغربية أم تصنيف الكتب أو تدريب الطلبة وتدريسهم أو في مجال قدرتهم على اجراء

(٦٦) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ج ٢ ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٦٧) العباس بن ابراهيم : الاعلام ج ٨ ص ٣٥٥ .

(٦٨) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة قسم ١ ، ج ٥ ص ١٩ .

(٦٩) العباس بن ابراهيم : الاعلام ج ٨ ص ٢٥٥ .

(٧٠) ابن الابار : المقتضب ص ٧١ ، ٧٢ .

(٧١) ابن العماد الحنبلي : ج ٤ ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٧٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الانبا : ج ٢ ص ٦٧ - ٧٣ .

(٧٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ج ص ٤٤٦ ، ٤٤٧ .

(٧٤) ابن أبي أصيبعة : ج ص ٨١ .

(٧٥) المصدر السابق ج ٢ ص ٦٧ ، ٧٠ .

(٧٦) المصدر السابق ج ٢ ص ٧٠ .

التجارب العلمية واستنباط النتائج الطبية (٧٧) . كما كان
لخلفاء الموحدين بيت للأشربة والمعاجين الطبية (٧٨) .

وقد واصل الطب تقدمه وازدهاره فى عصر بنى مرين
ومن الأطباء الذين برزوا فى هذا العلم أحمد بن محمد بن
يوسف الجزنائى المعروف بابن شعيب المتوفى سنة ٧٤٩ هـ /
١٣٤٨ م (٧٩) وقد تتلمذ ابن شعيب على يد يعقوب
الدارس بتونس وأخذ عنه الطب والهيئة ، وسافر الى غرناطة
حيث قام بدراسة واسعة عن تغيير الأدوية المنفردة (٨٠) .

ومنهم أيضا محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن
أحمد العزفى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م (٨١) .

ولا يفوتنا قبل أن ننتقل الى الحديث عن الطب أن نثبت
لابن خلدون هذا السبق فى موضوع ارتقاء الأنواع وانشعاب
بعضها من بعض ، فقد ذهب فى هذا الموضوع مذهباً سبق به
دارون Darwin ، وجماعة الارتقائيين Evolutionnistes
فيما يقرورنه بشأن ارتقاء الأنواع وانشعاب أعلاها من
أدناها (٨٢) .

ومن الاندلسيين الذين عملوا بالطب فى العاصمة المرينية
فاس محمد بن قاسم بن أبى بكر القرشى المالقى ، وقد رحل
هذا الطبيب الى فاس ومن المؤلفات الطبية المشهورة فى عصر
بنى مرين الكتاب الذى ألفه ابن الخطيب بعنوان : (عمل من

(٧٧) عبد المباس إبراهيم حمادى : الحركة الفكرية ص ٣٨٩ .

(٧٨) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٧٣ .

(٧٩) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٨٠) ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة ج ١ ص ٢٧٢ ، ٢٧٧ .

(٨١) الكتانى : سلوة الاقتباس ج ٣ ص ٢٧٧ .

(٨٢) د . على عبد الواحد والى : عبد الرحمن بن خلدون ص ٣١٦ - ٣٢٠ .

طب لمن حب) وهو مؤلف طبى كبير تناول فيه ابن الخطيب الأمراض المختلفة مع ذكر أسباب كل مرض وأعراضه وطرق علاجه وتحويطاته ونظام الغذاء الذى يناسبه ، كما تحدث فيه عن مختلف أعضاء الجسم ، وطرق العناية بها ، وذكر ابن الخطيب فى مقدمة الكتاب أنه لم يجد لخدمة أبى سالم الميرنى أفضل من الطب فألف له هذا الكتاب تعبيراً عن حبه له (٨٣) •

علم التعاليم :

ويتفرع عنه : العلوم الهندسية ، والعلوم العددية ، والموسيقى ، وعلم الهيئة (الفلك) والذى يتفرع منه علم التنجيم وعلم السحر والطلسمات (٨٤) •

وتجدر الإشارة هنا الى أن علم الهيئة الذى كان يعد فرعاً من فروع علم التعاليم أنه فى اصطلاحنا الحديث يعد فرعاً من فروع العلوم الطبيعية (٨٥) •

العلوم الهندسية :

هى «النظر فى المقادير ، أما المتصلة كالخط والسطح والجسم ، وأما المنفصلة كالأعداد فيما يعرض لها من العوارض الذاتية (أى فيما يتصل بقوانينها) : مثل أن كل مثلث فزواياه مثل قائمتين ، ومثل أن كل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان» (٨٦) • وللعلم

(٨٣) ابن الخطيب : عمل من طب لمن حب : مخطوط مصور بالميكروفيلم بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية •

(٨٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٥٣ •

(٨٥) د • على عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون • هامش ص ٣٠٦ •

(٨٦) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٥٨ •

أربعة فروع وهى : الهندسة العامة ، والهندسة المخصوصة بالأشكال الكروية ، والمخروطات وفن مساحة الأرض ، والمناظر والذى يبين به أسباب الغلط فى الإدراك البصرى بمعرفة كيفية وقوعها بنسأ على أن إدراك البصر يكون بمخروط شعاعى رأسه يقطع الباصر وقاعدته المرئى ، ثم يقع الغلط كثيرا فى رؤية القريب كثيرا والبعيد صغيرا ، وكذا رؤية الأشباح الصغيرة تحت الماء ووراء الأجسام الشفافة كبيرة ، ورؤية النقاط النازلة من المطر خطا مستقيما ، والشعلة دائرة وأمثال ذلك ، فيتبين فى هذا أسباب وكيفياته بالبراهين الهندسة» (٨٧) •

العلوم العددية :

وهى ستة فروع ، (الارتماطيقى Arithmetique) وهو معرفة خواص الأعداد عن حيث التأليف اما على التوالى أو بالتضعيف (٨٨) وهو مانسميه الآن بحساب المتواليات (٨٩) وهو مانسميه الآن بحساب المتواليات (٨٩) ، (والحساب) وهو «صناعة عملية فى حساب الاعداد بالضم والتفريق» (٩٠) وكان الحساب فى اصطلاح عصر بنى مـرين مقصورا على القواعد الأربع والكسور والجذور (٩١) ، أما (الجبر) فهو : «صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم المفروض اذا كان بينهما نسبة تقتضى ذلك» (٩٢) • و (المعاملات) :

(٨٧) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٥٩ •

(٨٨) المصدر السابق ص ٤٥٥ •

(٨٩) د • على عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون ص ٣٢١ •

(٩٠) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٥٥ •

(٩١) د • على عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون ص ٣٢١ •

(٩٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٥٦ •

«تصريف الحساب فى معاملات المدن فى البياعات والمساحات والزكوات وسائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات فى المجهول والمعلوم والكسر والصحيح والجذور وغيرها» (٩٣) وهو مانسميه الآن تمرينات ومسائل على قواعد الحساب (٩٤) ، و (الفرائض) وهى «صناعة حسابية فى تحديد السهام لذوى الفروض فى الميراث» (٩٥) .

ويطلق علم الارتماطيقى الآن على جميع الفروع الستة للعلوم العددية ماعدا الجبر (٩٦) .

وقد عرفت الاندلس علوم التعاليم مبكرة ، وذلك لارتباطها بالعلوم الدينية وتطبيق الشريعة ، مثل تقسيم الموارد ومعرفة اتجاه القبلة . الخ على أن بداية نهضة هذه العلوم فى الأندلس ، كانت بالتحديد على عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٩٧) .

وأول من برز فى هذا المجال هو أبو عبيدة بن مسلم بن أحمد بن أبى عبيدة البلنسى ، المتوفى ٢٩٥ هـ / ٩٠٧ م (٩٨) .

وفى عصر الخلافة فى الأندلس تطورت التعاليم تطورا ضخما ، ولعب الحكم المستنصر دورا كبيرا فى تشجيعها (٩٩) ، وبرز أبو القاسم مسلمة بن أحمد المعروف بالمجريطى ، المتوفى ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م . فقد كان امام التعاليم فى

(٩٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٥٧

(٩٤) د . على عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون ص ٣٢٢ .

(٩٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٥٧ .

(٩٦) د . عى عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون هامش ص ٣٢١ .

(٩٧) د . محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

(٩٨) صاعد الطبقي : طبقات الامم ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٩٩) المصدر السابق ص ٨٨ .

الاندلس فى وقته (١٠٠) ، وترك فى الاندلس مايمكن أن
نسميه بمدرسة المجريطى فى التعاليم (١٠١) .

ومن هؤلاء من مال أكثر ، الى دراسة علم الهيئة ، مثل
محمد بن عمر بن محمد المصروف بابن البرغوث المتوفى
٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م (١٠٢) ، و ابراهيم بن حبيب أبو اسحق
المعروف بولد الزرقى سال الاندلسى المتوفى ٤٩٣ هـ
/ ١١٠٠ م (١٠٣) .

ومما تجدر الاشارة اليه هنا أن الاندلسيين طوروا قليلا
الأرقام التى استعملها عرب الاندلس فى البداية لتكون
1. 2. 3. 4. 5. 6. 7. 8. 9. 0. وقد انتقلت الى المغرب ، وذاع
انتشارها عن طريق الاندلس (١٠٤) مع انتشار الحركة
العلمية فى المغرب على عهد المرابطين والموحدين . وبهذه
المناسبة ننوه بأن المغاربة لايزالون الى وقتنا الحاضر يستعملون
هذه الأرقام .

ومن الشخصيات الأندلسية التى تدين لها المغرب بنشر
علوم التعاليم بين أبنائها على عهد الموحدين : أحمد بن
ابراهيم بن على بن منعم العبدري (١٠٥) الذى سكن العاصمة
الموحدة وتصدى لتدريس العلوم المذكورة بالقبة المنصورية.

(١٠٠) صاعد الطبقي : طبقات الامم ، ص ٩٢ ، القفطى : اخبار العلماء باخبار
الحكماء (القاهرة ١٣٢٦ هـ) ص ٣٢٦ .

(١٠١) د محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم ص ٣٣٤ .

(١٠٢) صاعد الطبقي : طبقات الامم ص ٩٥ .

(١٠٣) القفطى : اخبار العلماء ، ص ٥٧ ، د محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ
التعليم ، ص ٣٢٥ .

(١٠٤) عبد الحميد لطفى ، وأحمد أبو العباس : تاريخ الرياضيات (القاهرة ١٩٥٥)
ص ٦٢ .

(١٠٥) ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة ج ٦ ص ٥٩ .

ازاء جامع المنصور الموحدى (١٠٦) فأخذ عنه كثير من أبناء العاصمة الموحدية وغيرهم الى أن توفي بها سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م وقد صنف تصانيف جلية في علوم التعاليم منها : فقه الحساب وتجريد أخبار كتب الهندسة على اختلاف مقاصدها وغيرها وكان من كثرة شغفه بهذا اللون من العلوم لاينام في كل ليلة حتى يستظهر كتاب الأركان لأقليدس إضافة الى ذلك أنه كان طبيبا أيضا (١٠٧) .

ومن الشخصيات العلمية المغربية التي أسهمت في هذا العلم بدور كبير عبد الله بن محمد بن حجاج المعروف بابن الياسمين (١٠٨) الذي أكمل دراسته بمدينة أشبيلية وصار من الأعلام في علوم كثيرة (١٠٩) كعلم الأدب والرياضيات (١١٠) وترك أرجوزتين احدهما في علم الجبر والمقابلة خلدت اسمه (١١١) .

وقد نشطت العلوم الهندسية بصفة عامة في عصر بني مرين نظرا للنهضة العمرانية التي شهدتها بلاد المغرب ، وتقدمت تبعا لذلك الآلات والاهزة الهندسية كالاسطرلابات والساعات ، والتي كان الاعتماد فيها على علم جر الأثقال أو الميكانيكا (١١٢) .

ومن الذين برزوا في العلوم الهندسية في عصر بني

(١٠٦) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ج ٦ ص ٥٩ ، ٦٠ .

(١٠٧) نفس المصدر ونفس الصفحات .

(١٠٨) العباس بن ابراهيم : الاعلام ج ٨ ص ٢٠٤ .

(١٠٩) ابن سعيد : الفصول الیانة ص ٤٢ .

(١١٠) ابن القاضی : جذرة الاقتباس قسم ٢ ص ٤٢٣ .

(١١١) عبد العباس ابراهيم محادى : الحركة الفكرية ص ٣٩٦ .

(١١٢) عثمان الكعاك : الحضارة العربية ص ٩٢ .

مرين محمد بن علي بن عبد الله بن الحاج المتوفى سنة ٧١٤ هـ / ١٣١٤ م وهو من الذين وفدوا الى المغرب من أشبيلية وكان بارعا في الحيل الهندسية ، ونقل الاجرام ، ورفع الأثقال ، لذلك فقد أسند اليه الاشراف على بناء دار الصناعة البحرية بمدينة سلا (١١٣) .

وقد نبغ في العلوم العددية في عصر بنى مرين عدد كبير من العلماء نذكر منهم على سبيل المثال محمد بن الشيخ الكبير الذي برع في علم الحساب (١١٤) وابن البناء العددي المتوفى سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م الذي وضع كتاب (التلخيص في علم الحساب ورفع الحجاب عليه) (١١٥) .

ومن هؤلاء أيضا أح
سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م و
الحساب (١١٦) .

الموسيقى :

هى : « معرفة نسب ا
وتقديرها بالعدد وثمرته

ويبدو أن كتاب «أبو
المزج الأساسى للموسيقى

متكون من جملة أسفار فى علم الموسيقى (١١٨)

(١١٣) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٨٠ .

(١١٤) الكتانى : سلوة الانفاس ج ٣ ص ٢٢٣ .

(١١٥) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٧٦ ، ٧٧ .

(١١٦) المصدر السابق : ص ٥٧ .

(١١٧) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٥٢ .

(١١٨) عباس الجوارى : أثر الأندلس على أوروبا فى مجال النغم والايقاع . مقال منشور بمجلة عالم الفكر الثانى عشر العدد الأول ابريل - مايو - يونيو ١٩٨١ ص ٢٠ .

يبدو ان موسيقى اهل الأندلس فى بادىء الأمر ، كانت
اما بطريقة حداة العرب ، واما بالطريقة الشعبية للنصارى
التي كانت منتشرة فى اسبانيا أيام الفتح الاسلامى لها ، وفى
الحالتين لم يكن عندهم قانون يعتمدون عليه (١١٩) •

لكن اتيح للموسيقى فى الأندلس أن تشهد تطورا كبيرا
وكان أول من دخل الأندلس من المشرق من الموسيقيين ، علون
وزقون ، دخلا فى ايام الحكم بن هشام ، وكانا
محسنين (١٢٠) •

ويعتبر زرياب صاحب مدرسة تميزت بأسلوب خاص
فى التلقين والتعليم • وربما كانت من اهم الأعمال التي
ارتبطت به فى الأندلس تغييره لمضارب العود واضافته وترا
خامسا له • اما المضارب فقد اخترعه « من قوام النسر
معتاضا به من مرهف الخشب فابرع فى ذلك للطف قشر الريشه
ونقائه وخفته على الأصابع وطول سلامة الوتر على كثر
ملازمته اياه (١٢١) •

ويبدو ان هذا الوتر الذى اضافه زرياب للوسط لم يكن
له تأثير بنيوى بقدر ما كان له أثر تنغمى يتجلى فى تلوين
العزف ، الا ان التفكير فيه كان سابقا لعمل زرياب فى المشرق
على تثبيت المؤلفات الموسيقية القديمة (١) •

اما ابو بكر بن باجة توفى ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م فبالاضافة

(١١٩) عباس الجراي : أثر الأندلس على أوروبا ص ٢٠ •

(١٢٠) المقرئ : نفح الطيب ج ٣ ص ١٣٠ •

(١٢١) المصدر السابق ص ١٢٦ - ١٢٧ •

(١٢٢) عباس الجراي : أثر الأندلس على أوروبا ص ٢٣ •

الى ما كتب فى الفلسفة والنفس والهندسة والفلك فانه
فيلسوف الأندلس وامامها فى الالحان (١٢٣) . ويعتبر فى
المغرب الاسلامى بمنزلة ابي نصر الفارابى بالشرق ، واليه
تنسب الالحان المطربة بالأندلس التى عليها الاعتماد (١٢٤) ،
وكان صاحب مدرسة نبغ فيها كثير من التلاميذ كأبى عامر
محمد بن الحمارة الغرناطى الذى « برع فى علم الالحان
واشتهر عنه انه كان يعتمد للشعراء فيقطع العود بيده ثم
يصنع منه عودا للغناء وينظم الشعر ويلحنه ويفنى
به (١٢٥) » .

ومن معاصري ابن باجة يذكر ابو الصلت امية
ابن عبد العزيز الدانى توفى ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م وكان
« متقنا لعلم الموسيقى وعمله جيد اللعب بالعود » (١٢٦) .

وابن الحاسب المرسى الذى سلف القول بان له كتابا كبيرا
فى الموسيقى يتكون من جملة اسفار وهو « فى علم الموسيقى
والتهذيب والظرف والتدريب » . شيخ هذه الطريقة « (١٢٧) » .
ومن تلاميذه ابو الحسن بن الوزير ابي جعفر الوقش الذى
كان ولوعا بالموسيقى « وقد رزق فيها » . ذوقا مع صوت
بديع أشهى من الكأس للخليع « (١٢٨) » . وجاءت بعد هؤلاء
فئة يذكر فى طليعتها يحيى الخدوج الموصى صاحب « كتاب
الأغانى الأندلسية على منزع الأغانى لأبى الفرج ، وهو ممن

(١٢٣) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ١١٩ .

(١٢٤) المقرئ : نفح الطيب ج ٣ ص ١٨٥ .

(١٢٥) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ١٢٠ ، المقرئ : نفح الطيب

ج ٤ ص ١٤٠ .

(١٢٦) ابن أبى اصبعية : عيون الانباء ص ٥٠١ .

(١٢٧) المقرئ : نفح ج ٤ ص ١٣٨ .

(١٢٨) نفس المصدر ونفس الصفحة .

ادرك المائة السابعة » (١٢٩) ، وكذلك الفيلسوف الصوفي
عبد الحق بن سبعين الذى له كتاب الأدوار (١٣٠) .

وقد عنى بعض هؤلاء الموسيقيين ، كذلك بصنع الآلات ،
وقد تجلى هذا فى العدد الهائل من الآلات التى كانت مستعملة
فى الأندلس ، والتى وصلت الى احدى وثلاثين آله ، وهى الدف
والغربال والمصافق والكبر والاصف والمزهر والعود والكران
والكيثار والمعرف والمزمار والنأى والقصابة والبوق والطبل
والكوس والكوبة والعير والطنبور والبربط والقضيب
والشاهين والساقس والشيزان والكنارات والعربة والصفارة
والشبابه » (١٣١) .

كما ذكر ابو الوليد الشقندى فى رسالته عن فضل
الأندلس ، اثناء حديثه عن اشبيلية عددا كبيرا منها « كالخيال
والكريح والعود والروطة والرباب والقانون والمونس والكثيرة
والضنار والزلامى والشقرة والنورة - وهما مزماران الواحد
غليظ الصوت والاخر رقيقه - والبوق ، وان كان جميع هذا
كان موجودا فى غيرها من بلاد الأندلس فانه فيها اكثر
واوجد » (١٣٢) .

وهكذا عرفت الأندلس حركة موسيقية متطورة ومزدهرة
وان التشكيل الموسيقى كان على بنىويه متسقة تبدأ بمقدمة
تفضى الى تناول موضوع متنوع قبل الانتهاء بخاتمة وليس من
شك فى ان هذا النظام البنىوى كان يعتبر جديدا (١٣٣) .

(١٢٩) المقرئ : نفع الطيب ج ٣ ص ١٨٥ .

(١٣٠) عباس الجرادى : أثر الأندلس على أوروبا ص ٢٦ .

(١٣١) المرجع السابق ص ٢٧ .

(١٣٢) المقرئ : نفع الطيب ج ٣ ص ٢١٣ .

(١٣٣) عباس الجرادى : أثر الأندلس على أوروبا ص ٣٠ .

وقد كان من أثر زرياب ومدرسته الموسيقية ، وان أصبح للخلفاء والأمراء وأكابر القوم شغف خاص بالموسيقى والغناء ، وحتى لقد مارسه الكثير منهم على سبيل الهواية لا الاحتراف (١٣٤) .

ولما جاء المرابطون الى المغرب ، حرص داعية المرابطين على الالتزام بتعاليم الدين (١٣٥) ، الا ان هذه الشدة فى بدء قيام الدولة ، اخذت تخف حدتها بعد ذلك ، وصارت هناك بعض الجوارى اللائى يحسن الغناء (١٣٦) . ومال المرابطون الى اللون الترف بعد احتكاكهم بالاندلسيين ، واطلاهم على أساليب الحياة فى المدن الأندلسية معا جعلهم يتأثرون بحياة الرفاهية والمتعة ، والتي كان يحيها ابناء الأندلس ، وصارت هناك مجالس للطرب (١٣٧) ، وكان ابن باجة فى طليعة جلساء الأمير المرابطى أبى بكر بن تافلويت ، الذى كان أميرا على سرقسطة (١٣٨) ، واصبحت ادوات اللهو والغناء متوفرة فى معظم المدن المغربية مما جعل ابن تومرت ينقم على المرابطين (١٣٩) .

وبالرغم من ان الموحدين فى أول عهدهم تصدوا بشدة لكل وسائل اللهو الا ان هذا التشدد لم يجد استجابة كاملة من أبناء الشعب . فيذكر الشقندى ، وهو يتحدث عن آلات الطرب الأندلسية فى رسالته التفاحيرية يتعرض للمغرب

(١٣٤) د . محمود أحمد الحفنى : زرياب ص ١٣٩ .

(١٣٥) ابن أبى زرع : الايس المطرب ج ٢ ص ٢٠ .

(١٣٦) المقرئ : نفح الطيب ج ٦ ص ١٢ .

(١٣٧) د . حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

(١٣٨) عباس الجرارى : أثر الاندلس على أوربا ص ٣٠ .

(١٣٩) ابن أبى زرع : ج ٢ ص ١٠٨ .

بقوله : «وليس فى بر العدو من هذا شىء الا ما جلب اليه من الأندلس ، وحسبهم الدف واقوال واليرا وابو قرون ودبدبة السودان وحماقى البربر » (١٤٠)

ويبدو ان المغرب كان يعرف فى هذا العصر من ايقاعات الرقص والغناء الوانا اختص بها عبيد السودان على حد ما نقرأ فى ترجمة القائم بن عبد الله بن محمد بن حماد ، وكان ولى القضاء فى المغرب والأندلس ثم استقر به المقام فى تاورا من ضواحي مدينة مكناس . وكان قد « انتقل اليها سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م فخرج للقائه أهل تاورا أوفرا ما كانوا عددا وثروة وسرعان مالقى الفنانون على يد الموحدين تشجيعا كبيرا ، فنجد الوزير أبا بكر بن زهر منقطعا الى الخليفة يعقوب المنصور ، وشاعت فى اواسط الناس موشحات القاضى ابنى حفص بن عمر بفضل الحانها ، ودخل سلا ابو الحسين بن الحمارة الغرناطى تلميذ ابن باجة فى القريض والموسيقى . بل ان أحد أمراء هذه الدولة المتأخرين - وهو أبو الحسن على بن عمر بن عبد المؤمن ، يصبح من اهل الولع بالموسيقى فيفتح لروادها بيته (١٤١) .

على ان المغرب برصيد علاقاته الوطيدة مع الأندلس ، ورصيد حضارته ، كان مستعدا لاحتضان تراث الأندلس الموسيقى وصيانتها حتى اصبح المغرب بدءا من العهد المرينى يتوسلون بالموسيقى فى علاج المرضى ، على حد ما كان يتم فى مستشفى سيدى فرج بفاس ، حيث حبست عليه اجباس

(١٤٠) المقري : نفع الطيب ج ٣ ص ٢١٣ .

(١٤١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٠٢ ، عبد العزيز بن عبد الجليل : مدخل

الى تاريخ الموسيقى المغربية ، (الكويت ١٩٨٣) ص ٣٧ ، ٣٨ .

خاصة ، كانت تصرف لجوق الطرب الأندلس الذى كان يحضر
مرة كل اسبوع ليطرب نزلاء المستشفى من مرضى
الاعصاب (١٤٢) * وظل المغرب محتفظا بالنوبة (١٤٣)
الأندلسية الى اليوم (١٤٤) *

علم الهيئة (الفلك) :

علم الهيئة أو الأفلاك هو علم يبحث في حركات الكواكب ،
ومن فرعه علم الازياج (علم التنجيم) الذى يبحث فى مواضع
الكواكب فى أفلاكها ، وكيف يمكن به معرفة الشهور والأيام
والتواريخ السابقة ، والتنبؤ بالحوادث المستقبلية * وكانت
لهذه الصناعة فى عصر بنى مرين قوانين كالمقدمات والأصول
لها فى معرفة الشهور والتواريخ الماضية ، وأصول متقررة
من معرفة الأوج والحضيض ، والميول وأصناف الحركات
واستخراج بعضها من بعض ، يضعونها فى جداول مرتبة
تسهيلا على المتعلمين ويسمونها (الازياج) * واذا كان كتاب
المجسطى لبطليموس الفلكى هو المرجع التى تقف عنده
النظريات فى علم الهيئة حتى عصر بنى مرين ، فان زيچ
ابن اسحاق (من منجمى تونس فى أول المائة السابعة للهجرة)
هو أهم المراجع فى علم الازياج ، وقد لخصه بن البناء
العددى (١٤٥) فى كتابه : (منهاج الطلاب فى تعديل

(١٤٢) عباس الجراي : أثر الاندلس على أوروبا ص ٤٣ *

(١٤٣) النوبة : لون من الناء ينتمى الى التراث الفنائى الاندلسى ، وتكون النوبة
من مجموعة من القوالب الفنائية تتوالى بترتيب معين ، وهى فى المغرب تتكون من خمسة
اقسام يسمى كل قسم منها ميزانا (عبد العزيز بن عبد الجليل : مدخل الى تاريخ
الموسيقا المغربية ص ٤٦) *

(١٤٤) نفس المرجع ونفس الصفحة *

(١٤٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٦٠ ، ٤٦١ *

الكواكب) ، كما كانت له عدة مؤلفات فى علم الهيئة منها :
(تنبيه الفهوم على مدارك العلوم) و (المناخ فى تعديل
الكواكب) ، و (المستطيل والسيارة فى تعديل الشارة ،
و (المناخ فى رؤية الأهله) ، و (المناخ فى تركيب الأزياج) ،
كما كان له أيضا تأليف فى أحكام النجوم ، ومداخل ثلاثة
لصناعة الأحكام النجومية (١٤٦) *

وكانت لابن البناء العددي أيضا عدة قوانين تمثل
خلاصة دراسته وأبحاثه فى هذا المجال مثل : قانونه فى
معرفة الاوقات بالحساب ، وقانونه فى فصول السنة ، وقانونه
فى ترحيل الشمس (٤٧١) *

ومن علماء الهيئة فى عصر بنى مرين البارزين أيضا
عبد الرحمن بن محمد الجاديرى المتوفى سنة ٨١٨هـ/
١٤١٥ م (١٤٨) *

علم تقويم البلدان (الجغرافيا) :

الجغرافيا كلمة يونانية بمعنى صورة الأرض ، وهو علم
يبحث فى أحوال الأرض من حيث تقسيمها الى الاقاليم والجبال
والأنهار ، والمعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء
فى ألوان البشر والكثير من أحوالهم وأخلاقهم ، واختلاف
أحوال العمران فى الخصب والجوع وماينشأ عن ذلك فى
أبدان البشر وأخلاقهم (١٤٩) *

(١٤٦) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٧٦ ٧٧ *

(١٤٧) المصدر السابق : ص ٧٧ *

(١٤٨) الكتانى : سلوة الانفاس ج ٢ ص ١٥٧ ، ١٥٨ *

(١٤٩) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٩ - ١١٢ حاجى خليفة : كشف الظنون *

استنبول ١٩٤١ م ص ٥٩٠ *

وكما اشتهر الاندلسيون بولعهم الشديد بالكتابة التاريخية ، اشتهروا أيضا بولعهم الشديد بالرحلة والأسفار والتنقل لهذا ظهر من بينهم نخبة ممتازة من الرحالة الذين زاروا كثيرا من نواحي المعمورة ، وسجلوا مشاهدوه وعائنه ، أو قرأوه فى وصف تلك البلاد ، فحفلت مؤلفاتهم بمادة جغرافية وفيرة عن العالم المعروف فى ذلك الوقت (١٥٠) .

وبطبيعة الحال كان وصف وطنهم جزيرة الاندلس يحتل مكانا بارزا فى مؤلفاتهم فتحدثوا بالتفصيل عن خططها ومسالكها ومدنها وكورها وأنهارها وجبالها والتوزيع الإدارى لأقاليمها ونسبة كل اقليم الى الآخر من الوجهة الجغرافية . كذلك اهتموا بضبط أسماء هذه الأماكن الجغرافية ضبطا صحيحا بحيث يتفق نطقها العربى مع نطقها الأسبانى ، ولم تقتصر دقة الاندلسيين على رسم الاعلام والتثبيت من نطقها ، بل تتجلى دقتهم أيضا فى محاولة الرجوع الى أصولها اللاتينية أو الأغريقية ، لتفسير معناها حسبما هو موجود لديهم فى كتابات الاغريق والرومان . مثال ذلك قول عبد الله بن عبد العزيز بن محمد المعروف بأبى عبيد البكرى المتوفى (ت ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م) أكبر جغرافى أنجبته الاندلس . عند كلامه على طليطلة يقول ان تفسيرها باللاتينى تولاطو Tolatum ومعناها فرح ساكنها لحصانتها . وقد ثبت أن من مشتقات هذه الكلمة اللاتينية مايدل على معنى حافة الجبل المنكب وهو مايتفق مع وضعها الجغرافى . وقوله عند الكلام عن اشبيلية : المدينة

(١٥٠) د . أحمد مختار العبادى : الاسلام فى أرض الاندلس ص ٣٦٣ .

ورأيت لبعض المؤرخين أن مدينة أشبيلية تسمى أشبالي *Hispalis* ومعناها المدينة المنبسطة . وقوله في وصف ماردة Merida وقد احرق بالمدينة سور عرضه اثنا عشر ذراعا ، وارتفاعه ثمانية عشر ذراعا وعلى بابها كتابة ترجمتها بالاعجمية براءة لأهل ايلياء (بيت المقدس) . ويذهب دوزي وسيمونيت الى القول بأن الجغرافيين الأندلسيين كانوا على مرفعة بكتاب (أصول الكلمات) *Etimologias* للقديس ايزيدور الأشبيلي أو الباجي توفي ٥ هـ / ٦٢٦ م ، وان البكرى بالذات نقل عنه أوصاف بعض النواحي وقد حقق أبناء المغرب في عصر الموحدين قفزة علمية كبيرة في الابحاث الجغرافية (١٥١) ، ومن أبرز علماء العصر من المغاربة نذكر الادريسي الذي من اشهر مؤلفاته كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، وابى على الحسن بن علي الذي يرجع اليه الفضل في تصحيح بعض آراء بطليموس الجغرافية ، وهو الذي حدد رسم خريطة المغرب بطريقة تختلف عن طريقة غيره من العلماء الجغرافيين الذين سبقوه في هذا العمل وقاموا بنقلها نقلا آليا على ما هي عليه من الخطأ وترك مصنفاء عد من أجل الاثار العلمية العربية في علم الجغرافيا سماه بالبدايات والنهايات .

ويبدو أن تطور علم الجغرافيا في المغرب لم يكن سريعا كما كان في المشرق ، الا أن المغرب في عصر بنى مرين عرف كثيرا من الجغرافيين الذين قاموا بدور هام في تدعيم علم الجغرافيا العربية (١٥٢) ، واعداده بالمعلومات المفصلة لاسيما عن بلاد السودان ، وشمال القارة الافريقية ، وبعض أجزاء القارة الاوربية ، هذا الى جانب ابتكارهم للرحلات

(١٥١) د . أحمد مختار العبادي : الاسلام في أرض الاندلس ص ٣٦٤ .

(١٥٢) السيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ص ٢٠٠ - ٢٤٠ .

الحجازية التي دونوا فيها ما شاهدوه في طريقهم للحج حتى كادت كتب الرحلات تكون محتكرة على العلماء المغاربة والأندلسيين (١٥٣) .

ومن هؤلاء المغاربة الذين كانت لهم مؤلفات في عصر بنى مرين في علم الجغرافيا ذلك الجغرافي المجهول الذي وضع كتابه في علم الجغرافيا سنة ٩٦٢ هـ / ١٢٩٢ م والذي أشار فيه الى أنه نسخه عن جغرافيا الفزازي التي نسخها من أمير المؤمنين المأمون بن هارون الرشيد والتي جمعها سبعون رجلا من فلاسفة العراق وضعوها على صفة الأرض (١٥٤) .

وهناك أيضا ابن البناء العددي الذي وضع كتاب « المناخ في تركيب الرياح » ، ومقالة في علم « الاسطرلاب » ورسالة في العمل بالصفحة الزقالية ، ورسالة أخرى في السكانية . كما كانت له عدة قوانين تعتبر خلاصة دراساته وأبحاثه في هذا المجال مثل قانون فصول السنة (١٥٥) .

ومن علماء الجغرافيا أيضا في عصر بنى مرين عبد الرحمن بن محمد الجاديري المتوفى سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م والذي كان جغرافيا وفلكيا متفوقا استطاع أن يجمع بين العديد من المهارات في هذا المجال مثل : العمل بآلة الاسطرلاب وبالصفحة السكانية ، وبربع الدائرة ، والعمل بالحساب

(١٥٣) كراشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي . ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم القسم الأول ص ٢٧٤ ، عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين . بيروت ١٩٥٧ م ص ٧٥ .
(١٥٤) مجهول : كتاب في الجغرافيا مخطوط مصور بالميكرو فيلم بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ص ٩ .

(١٥٥) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٧٦ ، ٧٧ .

والمجدل ، كما كانت له مؤلفات جغرافية مثل (تنبيه الأنام على
ما يحدث فى أيام العام) و (روضة الأزهار فى علم وقتى
الليل والنهار) (١٥٦) .

المحتويات

- مقدمة ٣ - ٤
- الفصل الأول : برامج التعليم والمؤسسات التعليمية ٥ - ٣٨
 - أولا : برامج التعليم (موقف الدولة -
 - مراحل التعليم - مناهج التعليم -
 - طرق التدريس - المواد الدراسية -
 - هيئات التدريس - الطلبة - الرحلة
 - في طلب العلم - الشهادات والالقب
 - العلمية .
- ٣٩ - ٦٨ ثانيا : أمكنة التعليم (الكتاب
- الزوايا - المدارس - مدارس الطب
- العليا - المساجد الكبيرة الجامعة -
- المساجد الصغيرة - مساكن الطلبة -
- المكتبات - عمارة المدرسة عمارة
- المساجد - الموارد المالية)
- الفصل الثاني : العلوم النقلية والعقلية . . . ٦٩ - ١٩٦
 - أولا : العلوم النقلية : (علم التفسير
 - القراءات - علوم القرآن - رسم
 - المصحف - علوم الحديث - الفقه -
 - علم الكلام - علوم اللسان العربي -
 - علم التصوف - علم التاريخ - علم
 - تعبير الرؤيا) .
 - ثانيا : العلوم العقلية : (علم المنطق
 - علم الالاهيات - علم الطبيعيات -
 - علوم التعاليم - علم تقويم البلدان)